كتاب جماعي

نحلم الجزائر

شهادات وقصص ونصوص

ترجمة : حمدي بعالة، صلاح باديس

[منشورات البرزخ]

نجلم الجزائر

فكرة وتمويل

مؤسسة فريدريش إيبرت الجزائر.

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

لا تُلزم النصوص والآراء الـمُعبّر عنها في هذا الكتاب سوى صاحباتها وأصحابها ولا تعكس موقف مؤسسة فريدريش إيبرت.

© منشورات البرزخ، الجزائر، 2021.

ردمك : 978-9931-04-080-4.

الإيداع القانوني : جوان، 2021.

كتاب جماعي

نحلم الجزائر

شهادات وقصص ونصوص

ترجمة : حمدي بعالة

صلاح باديس

مراجعة وتدقيق :

راضية عشي

[منشورات البرزخ]

مقدمة

« المقاومة، هي الحلم بأن عالما آخرَ ممكنا،
والمساهمة في بنائه. »

انياسيو راموني.

أعترف أنني حلمت !

حلمت وأنا مستيقظة : جالسة، واقفة، وأنا أمشي، نائمة... حلمي كان ملموسا، يقترب من الواقع، يتجسّد !

حلمت لأجلي، لأجل ألاّ تُعنَّف أخواتي، لأجل ألا تُسلب حريّاتنا ؛ حلمت ألاّ تُكمّم الصحافة، ألاّ يُطوّق المجال السياسي، ألاّ يُهمل تراثنا ويُدمّر...

ثم تساءلت عن مسؤولياتنا، عن استقالتنا، عن دورنا في السوق الذي حُسِمَ من دون جمهور ولكن على مرأى الجميع ومسمعهم، عن انجازاتنا المستقبلية، وعن فكرة أن على الأحلام الشخصية التداخل مع الأحلام الجماعية لتكون لها فرصة أن تصير حقيقة.

إنّ نتيجة كل هذه الأحلام والتساؤلات والطموحات المُعلّقة بسبب غياب الفضاءات التي تحتضن النقاش

والحوار المعمّق، خلقت عندي رغبة مرافقة إصدار هذا الكتاب الجماعي. ربما لن يغيّر هذا الأخير أيّ شيء في واقعنا، ولكنه سيجد من دون شك صدى لدى نساء ورجال يستبسلون كي يكونوا أحرارا في فكرهم وحلمهم ورغبة البناء معا.

في البداية، وعندما كان الحراك يضربُ بكل ما فيه من قوة وكانت الأحلام تبدو قريبة ومتاحة، كانت الفكرة الأولية تدور حول الدفع بشباب للحلم بالجزائر عن طريق الكتابة وفي إطار ورشات للكتابة، حيث تعوّد مكتب مؤسسة فريدريش إيبرت في الجزائر على تنظيمها منذ 2005. لكن، في سياق الجائحة التي منعت كل تواصل وتجمّع جسدي، تخلّينا عن الفكرة بسرعة.

وهنا حصل هذا اللقاء الجميل مع منشورات البرزخ، حيث أعدنا عجن فكرة المشروع، متحمسين لفكرة رفع رهان به شيء من المخاطرة، إذ ودون الوقوع في الكليشيهات، كيف نصنع مؤلّفًا أصيلا يحطم الأيقونات ولكنّه قبل كل شيء مفيد حول جزائر نحلم بها؟ هنا قرّرنا دعوة أشخاص، سواء كُنّ مناضلات ومناضلين أم لا، أيضا صحفيات وصحفيين وكاتبات وكتاب ومهندسات ومهندسين وطبيبات وأطباء نفسيين وطالبات وطلّاب ومواطنات ومواطنين لهم علاقة هاوية أم جدّية بالكتابة.

دعونا الجميع لتشَارُك الحلم، كل واحد من مكانه، من ذاتيته، من مجال تخصّصه.

يبدو السؤال أساسيا : « بأيّ جزائر تحلمون ؟ ولماذا ؟ » رغم أنه يظهر بسيطا ظاهريا. لكن إذا ما قمنا بسيره فعلا، سَنَجِدُهُ يُحاصر ويُجبر ويحثّ على تجاوز العموميات المستعجلة. إذا ما كانَ الحلم عملية دماغية غير مُتحكّم بها (على الأقل الحلم الليلي)، يبقى، في الجزائر، عندما يكون يقِظًا... استباقيا، تمرينا صعبا. في سياق يُغلق الآفاق، ليس من السهل أن يتصوّر الإنسان نفسه في المستقبل ويحشد طاقته ليبني المستقبل.

لكن، كيف نفكّر في جزائر أفضل ونبنيها إذا كنا لا نعرف كيف نحلمها ؟

بعيدا عن المسارات المألوفة، والنقاشات السياسية واقتراحات البرامج وخرائط الطريق، يريد هذا الكتاب أن يكون تعبيرا ذاتيا لتصور الجزائر التي نتمنى أن نراها تتحقّق.

إنّها أصوات متفرّدة تقودنا إلى تشكيلة غير محدودة ولا يُمكن حصرها : نصوص خيالية وأخرى ذاتية وقصص حياة وشهادات وتحليلات. طموح واحد فقط، كلمة واحدة : اقتراح رؤية حميمة، واقعية أم لا، لجزائر أفضل. أربعة عشر نصا، أربعة عشر ذاتا

تنعكس من خلالها إمكانية بناء مجتمع للحريات والترقّي والعيش المشترك.

إنّ هذا الكتاب، المليء بالأمل، ولكن أيضا بالمراجعات الصريحة ومن دون هوادة، والحقائق النيّئة والشجاعة – والتي تُقال بسخرية غالبا –، يخبرنا بأن جزائر أخرى ممكنة.

أمينة إزرّوقن،
المكلّفة بالبرامج،
مؤسسة فريدريش إيبرت، الجزائر.

قصص تخييلية

الرقصة الأخيرة

وئام أوراس

تتحرك عينا آسيا المغمضتين من جانب إلى آخر ومن أسفل إلى أعلى. أتساءل ما الذي تراه في منامها. ترفرف جفونها وترتعش رموشها. لكن لا يبدو أنه حلم سيئ. عربة، سهم، تفاحة، شجرة، باذنجان، مدينة، صديق، جدتها، هذا ما حلمت به هذا الأسبوع.

لا أتذكر دائمًا أحلامي، وأرى أحيانًا كوابيس وأحرص على الاحتفاظ بها كتابة. أفعل هذا لأنها طلبت مني ذلك، كما أن الأحلام أصبحت مهمة جدًا في أيامنا هذه. كل يوم، يسأل الكثير منا أحبتنا، ليس « كيف حالك ؟ » الذي صار عاديا، بل « بماذا حلمت، إن لم يكن السؤال متطفلا ؟ » يحدث التطفل أحيانًا، لكن يدرك الشخص بسرعة تجاوزه ويتحدث عن شيء آخر.

آسيا صديقة قديمة وغالبًا ما تأتي إلى منزلي. في الآونة الأخيرة، كثيرا ما تحلم بجدتها التي توفيت قبل شهر. رأت يوم الجنازة مرة أخرى. كان يومًا عظيمًا، حشد مجنون في المقبرة. جاء الرجال والنساء لمرافقتها

إلى مثواها الأخير. تشكل طابور طويل وحُمل النعش من قبل آسيا وأقارب جدتها، وتناوب عليه أناس آخرون، خالة، عم، أصدقاء ... وفي لحظة ما من الحلم، رأتها حية مرة أخرى. أصبح الاستيقاظ صعبا بعد ذلك، لكن الضباب بدأ يتلاشى في النهاية.

ورثت آسيا من جدتها تراثًا فكريًا كبيرًا نسبيا. كلنا نرث القليل من روح أسلافنا. أما آسيا، فورثت العلاج من خلال الحلم، بعبارة أخرى، وفي صيغة سريعة: « قل لي ماذا تحلم، وسأخبرك كيف حالك وكيف تصلحه ». باختصار، آسيا هي « *عالمة أحلام* ». هذه هي وظيفتها، أصبحت محللة نفسية بعد أن درست علم النفس في كلية الجزائر الواقعة في وسط المدينة. هي الآن تعمل في قسم الأحلام وتفسيرها (تفسيراتها)، وفي العيادة ... نسيت اسم العيادة ... لدي مشكلة مع بعض الأسماء: إما أن أنساها أو لا أسمعها، ليس لأن سمعي ضعيف لكن هناك أسماء تصطدم بعقبات قبل أن تصل أذني.

قضيت نهار اليوم في المختبر. أعمل في مختبر نباتات الجزائر العاصمة. أنا « *عالمة* حشيش »، كما يقول البعض. من بين الأعمال المختلفة التي تم تنفيذها مؤخرًا، كان هناك رقمنة لأنواع نباتية من شمال إفريقيا: أنشأنا معشبة لأكثر من ستة آلاف نوع تم جردها من نواحٍ ومناخات مختلفة في هذه المنطقة.

حاليًا، لدينا في الفريق مؤرخ يجري بحثًا عن العلماء الذين طوروا علم النبات في الجزائر. يتعاون مع اثنين من علماء أصول الكلمات الذين يشتغلون على أسماء النباتات في *الدا*رجة والأمازيغية، كما يتعاون، علاوة على ذلك، مع مركز البحوث الأنثروبولوجية رفقة فريق متخصص في الأساطير المحلية، من أجل تعميق معرفتنا بتأثير ثقافاتنا في تسمية النباتات واستخدامها. إنه عمل مثير!

إنها الواحدة صباحا، وأنا أنتقل من فكرة لأخرى ومن حلم إلى آخر منذ ساعتين. أعلم أنني سأستغرق بعض الوقت قبل أن أنام، لذلك أترك السرير ببطء حتى لا أوقظ آسيا، وأخرج.

أسكن في حي على شكل حرف U، يقابله حي آخر على شكل U، ولا تزال هذه المباني القديمة صلبة للغاية، بها عدد لا يحصى من البلاط المتنوع: أرابيسك من جميع الأنواع، بأشكال هندسية وأنماط زهرية متعددة.

الجو حار الليلة، أشعر بذلك عندما أغادر المبنى. لا يوجد نسيم بارد، إنما استمرار *للصهد*، حرارة هذا اليوم الشديدة تلطفها الأشجار قليلاً، لكنها تبدو في بعض الأماكن وكأنها فرن. نظرًا لوجود قانون يحظر قطع الأشجار دون استشارة خبراء البيئة، وبما أن كل حي

يرحب بالأشجار على طول الأرصفة وفي كل زاوية، فإن المدينة بأكملها تشبه حديقة التجارب. تتكون بعض الأماكن بشكل رئيسي من نباتات عشبية من المنطقة. توجد أيضًا عادة تتمثل في غرس شجرة عند ولادة كل مولود جديد: كستناء، مُران، بلوط، زيتون، خروب، توت أبيض، أوكالبتوس، لبخ، صنوبر... يختلف النوع حسب الأحياء وبيئة الأماكن. فيقيم الطفل رابطة شخصية، إن جاز التعبير، بالشجرة ويتعلم أن كل حياة مقدسة.

مررت قرب شجرة تين في *خليج موريتون*، زُرِعت بمناسبة ولادة الصغيرة أسماء، محبوبة والدها. لم تعد صغيرة اليوم طبعا. كانوا يسكنون فوقنا، وعندما كانت رضيعة كنت أحيانًا ألتقي بوالدها وهي معه: بخطواتها الصغيرة وركبتيها المتراجعتين، كان يساعدها ويعينها بيده. تبلغ اليوم من العمر سبعة عشر عامًا. ستلتحق بكلية الآثار بالجامعة. صادفتها أمس عند مدخل المبنى لمّا أخبرتني بالخبر السار. كانت راجعة من المتجر حيث اشترت السمن ومكونات أخرى: كانت أختها تُخبز لها الكعك للاحتفال بتخرجها من المدرسة الثانوية. كانت سعيدة جدا ونقلت لي فرحتها. صارت امرأة الآن وقد نمت شجرة التين جيدًا في *خليج موريتون* أيضًا، بجذورها الهوائية المتفرعة والمثيرة للإعجاب. أرفع رأسي لألقي نظرة على أغصانها المهيبة، ثم أنظر نحو

شقة أسماء. انطفأت الأنوار. حل الظلام في الخارج، لا ضوء سوى ضوء القمر الذي ينير الشوارع، والنجوم كأعمدة إنارة وحيدة. لدينا أيضا صراصير الليل وحشرات أخرى هي بمثابة فرقة موسيقية. طالما بقوا بعيدا فلا بأس... لا يعني ذلك أنني أريد أن أؤذيهم، فقتل الحشرات أمر سيء. إذا كانت ضارة، فلا بد من ذلك، لأسباب واضحة، ويجب أن يتوافق هذا مع احترام البيئة. فقط أن الحشرات تسبب رد فعل يتمثل في الابتعاد عنها، ويبدو أنه خوف قديم ينتقل من جيل إلى جيل. في الوقت الحاضر، قمنا بترويض ردود أفعالنا بشكل أو بآخر: عندما نخاف، نحاول أن نفهم، بدل أن نعذب ونقتل.

أستمر في المشي وأرى طيفا يتحرك وكأنه يرقص ببطء. يضيئه القمر بعض الشيء ويجعله يبدو خارقا للعادة. يمكنني التعرف عليها من بين آلاف. أناديها حسينة لأنني أنسى اسمها في كل مرة تخبرني به. تخفض صوتها، ولا أسمع سوى نوع من الهمس، ينسف الريح الأصوات ولا تصل إلى أذني التي لا تلتقط شيئًا رغم جهودي. أمشي وأراها تلف، وابتسامة على أطراف شفتيها، ورأسها مائل إلى الجانب، وعيناها نصف مغمضتين، والموسيقى تنبعث منها من خلال حركاتها. ترفع ذراعيها مثل الأجنحة وتتأرجح بلطف ذهابا وإيابا، الأمر الذي يعطيها خفة ونعومة. هي تعرف أنني هنا، ولم تتوقف. لحسينة ثمانية

أطفال ترعاهم بمساعدة الدولة. تركت زوجها عندما بدأ معاملتها بعنف وعاشت في حَيّنا منذ ذلك الحين. من المحظور رفع اليد لضرب شخص ما، وهو أمر مستهجن على الفور. أراد زوجها أيضا منعها من الخروج والرقص في الحفلات. لذلك اشتكت وحصلت على المساعدة التي تحتاجها. لم يكن الأمر سهلاً، لكن ثمة دائمًا دعم في مثل هذه المواقف. منذ ذلك الحين، تخرج بحرية للرقص في الليل وتسعد قلوب المارة.

— قالت لي: تعالي وارقصي معي.

— أنت تعرفين أنني لا أجيد الرقص.

— الجميع يجيد الرقص؛ يكفي ألا تعبئي وألا تقلقي إن كان جسدك يفعل ما يجب فعله، لأنه لا توجد قوانين للتعبير عن البهجة من خلال الرقص.

— هل أنت مبتهجة؟

— أردت أن أمشي قليلا لكي أشم الهواء. أحب أولادي كثيرا لكن أحيانا أحب أن أبقى مع نفسي، فأخرج للمشي. تزورني هذه الموسيقى وتأخذني بعيدا، ويجعلني الرقص بهيجة. تحركي معي.

— أنا لا أسمع أي موسيقى.

— لسوء حظك.

— *وحدك حسينة*.

— *مانيش وحدي، راني معاك يا* دليلة.

— اسمي ليس دليلة.

— ولا أنا اسمي حسينة، اسمي...

وككل مرة لا يصل اسمها إلى أذني ويطير بعيدا.

— *مقبيل جازت وردة شطحت معايا.*

— *اه ! وش راهي ؟*

— *لا بأس.* تحسنت أمورها منذ أن تركت حبيبها السابق. انتقلت للعيش مع رجل التقته، وأخبرتني أنهم سعداء، هي وأطفالها الأربعة، وأنها لن تعود مجددا إلى قالمة التي عاشت فيها أربعين سنة. أو على الأقل لن تعود هناك قبل فترة ما.

— مادامت على ما يرام هنا، فذلك هو الأهم.

— نعم، أنا أنتظرها، قالت لي إنها ستعود، وفي انتظار ذلك أنا أرقص.

لكن حسينة لم تعد ترقص فمتى توقفت ؟ لم أنتبه. وقفنا هكذا، في صمت، لبضع ثوان، ثم استأنفت بحركة بطيئة، وهذه المرة صارت تغني بلطف « *حسينة الزهوانية* ». انفجرتُ بالضحك، وسلمت عليها وواصلت السير.

ألاحظ عددا من أنواع النباتات، الهندباء، الرجلة، القرنفل، الغار، وهنا وهناك، أرى أواني الأعشاب العطرية والنعناع والميرمية وإكليل الجبل والزعتر وعجائب صغيرة أخرى. وصلت أخيرًا إلى ينابيع *ثلث عيون* التي تغذي نافورة تحمل نفس الاسم. يبدو أن

الساعة تقترب من الثانية صباحًا أو تجاوزتها قليلا لأنني مشيت كثيرا وببطء. أرى أميرة على حافة النافورة. وصل صوت اسمها إلى أذني ولم أنساها أبدًا. كما ترون، يكفي أن أنجح في سماع الأصوات وربطها لتبقى محفورة في داخلي إلى الأبد. أراها جالسة ويدها اليمنى تشد خصلات شعرها الداكن المتساقط على كتفيها. أراها تحدق في الماء، غارقة في أفكارها. عندما تسمعني أقترب، تستقبلني بحرارة. تحدثنا قليلاً، وأخبرتني أنها تحب أن تكون قرب الماء، وأنها تحب هذا المكان، وتحب هذه المدينة، لكنها لا تحب النار، لأن أياد شريرة استخدمتها لإيذاء بعض الناس. أجيب أنه لاً أحد يفعل ذلك اليوم.

— لكن فعلوا ذلك كثيرا في الماضي.

وتستمر في الكلام، لكن الكلمات التي تخرج من فمها لم تعد تصلني مهما قربت أذني أو وضعت يدي خلف أذني اليسرى، ثم أذني اليمنى. لم أنجح وتلاشت الأصوات. أصابني الذعر واعتذرت لعدم تمكني من سماعها. ضوء القمر يلامس وجهها مباشرة، وهي بلا حراك، ويدها اليمنى موضوعة على شعرها. بدأت صورتها تتلاشى، مثل ظهور شبحيّ ينزلق بعيدًا، قفزت من حافة النافورة وحاولت الإمساك بها، لكنها تلاشت وتحركت بعيدًا، ثم اختفت.

أعود مذهولة وبسرعة إلى آسيا. أجدها لا تزال نائمة، وعيناها هادئتان وملامحها مطمئنة... سأنتظر حتى تستيقظ لأخبرها بكل شيء، لأنني أسمعها أحيانًا.

***

الشخصيات والمواقف في هذه القصة هي ثمرة خيال قد يصبح يومًا ما حقيقة. فأي تشابه مع أشخاص أو مواقف موجودة، أو كانت موجودة، هي حقيقية جدًا وليست عرضية. قد يولد هذا العالم الذي تكون فيه نساء مثل أسماء وحسينة وورودة وأميرة على قيد الحياة اليوم ويمكنهن العيش كما يحلو لهن. للأسف، لقد تم قتلهن في عالمنا. وصلتنا أسماء ووجوه بعضهن، لكن بالنسبة إلى الأخريات الكثيرات لا تزال أسماؤهن وقصصهن بعيدة عنا. نحن لا ننساهن. من أجلهن، وبفضل ذكرياتهن، سنبقى نحلم ونبني هذا العالم الذي لن تخشى فيه واحدة منا الخروج أو الحب، وتكون قادرة على تحقيق أحلامها بحرية كاملة.

بلد ذكي

هاجر باعلي

يراقب عبدو الرجل الممدد قرب المسبح وحوله حديقة فوضوية وبهيجة... لا توجد مرجة خضراء هنا لكن هناك أعشاب وأزهار يبدو أنها نبتت بعفوية. وثمة ألوان: الأحمر والأصفر والأزرق اللطيف. عشيقان يلهوان بعيدا عن الأنظار، في اعتقادهما. أو ربما لا يكترثان. هذه هي الجنة، يخمن عبدو. ثم يفكر في الحرب مباشرة بعدها ولا أحد يعرف السبب. تأتي ومضة وفقط : انفجارات، غبار، بؤس واغتيالات. يبقى التمتع بالسعادة ناقصا في كل الأحوال. هناك صوت داخلي يمنعنا من ذلك. الحرب بعيدة خلفنا، يطمئن نفسه أخيرا. تخلينا عن السلاح بصفة نهائية. كُتب الأمر بأحرف من ذهب في ديباجة الدستور ولا يمكن تغييره. أو يبدو ذلك...

يلتف الرجل حول نفسه ويغطيه جزئيا إزار شاطئ. يرفع نسيم خفيف خصلة بيضاء طويلة تغطي جبينه

ويظهر الوجه الذي كان وسيمًا يوما ما. الجبين مصمم والفم سخي. يفتح عينا ثم الأخرى ويبتسم للسماء.

— لم أنتبه لقدومك. من فتح لك الباب ؟

— لا أحد. سيدي الرئيس، أنا...

— أعلم من تكون. بإمكانك مناداتي جو. هكذا يسمونني، أليس كذلك ؟ لم أعد رئيسا منذ مدة، فلا داعي للتكلف معي. أتمنى أنك حافظت على حس فكاهتك. إنه الشيء الوحيد الذي لا زال يثير إعجابي. ديبروج العظيمٍ ! نحتاج إلى الملايين من أمثاله في هذا العالم.

يلاحظ عبدو أن الرجل لم ينس ذلك النقاش الشهير الذي مرت عليه أربع أو خمس سنوات. شارك في مائدة مستديرة لصحفيين كرر كل واحد منهم فيها أزيزه المعتاد، قبل أن يحل جو فجأة على القاعة بمرحه وعطفه فيكسر الملل الذي بدأ ينتاب الحاضرين الخادرين في صمت. أرسل الرفقاء من « فوليبيليس » مراسل *صوت المغرب* لتقييم المكتسبات التراثية العتيقة. لا شك أن الرجل كان صادقا، متعلما ومتمكنا. رمى على من أرادوا سماعه : « لقد خاب أملي »، وهو جالس على كرسيه في وضعية تحد وكأنها قضية حياة أو موت، بينما كان النقاش جد ممل في الحقيقة. وأضاف : « إن آراءنا مختلفة ». فأردف جو فورا : « يا للهول »، تماما كما في السكاتش. لم

يستطع عبدو أن يتمالك نفسه وانفجر ضاحكًا، ولم تتجاوب معه سوى نظرة جو المازحة، بينما احتل الاستغراب وجوه البقية. كان ذلك آخر لقاء لجو يحضره عبدو، ولم يشارك في الندوة الصحفية بعد شهر أين أعلن عن حصيلة الحكومة. بالإضافة إلى استقالة الرئيس كما ينص عليه الدستور. أجل، إذًا، حدث هذا عام 2029، أي قبل أربع سنوات.

ينتظر عبدو واقفا في صمت ويتمنى لو يجلس على الأريكة التي تبدو مريحة، أو أن يستلقي بجنب جو. ورغم أنه دخل الفيلا دون أن يطلب مقابلة، يشعر أنه لا يتجرأ على الجلوس من دون دعوة.

— أعيش لوحدي كما ترون، السيد لعبيدي، يواصل جو. زوجتي غادرت ولم تعد تعيش هنا. الأولاد أيضا غادروا. لا أحد هنا. الخادمة العجوز عتيقة تأتي عندما يحلو لها. هل صادفتها ؟

— لا.

— كانت هنا هذا الصباح. لم أقدر على إقناعها بإغلاق الباب. إنها هكذا. لو تغادر هي الأخرى فسأموت من الجوع. أنصحك بأمر أيها الشاب مادامت لديك القوة على ذلك : تعلم الطبخ. إنه أمر مهم لمن يحلم بالاستقلالية. كما يجب أن تكون مهيئا، أن تحوذ على كل اللوازم. وإلا فسوف يتحتم عليك أن تتعلم

غسيل ملابسك وكيها مثلا. هناك غبار، الكثير من الغبار. باختصار، لا أستطيع الاستغناء عن عتيقة.

يقرر عبدو الجلوس فجأة، فهذا من حقه على كل حال. وفوق هذا فقد جاء لمحاورته وتدوين ملاحظات. جاء لأخذ اعترافاته. لا. بالأحرى لسماع جانبه من القصة ودوافعه، حسب ظنه. لهذا قدم اليوم، عشية تاريخ الاعتقال المعلن عنه. عندما يأتي الفضوليون والصحفيون الآخرون سيكون قد أنهى مقاله. كانت تلك نيته. هز مدير تحريره أكتافه وقال: « عليك بالحذر بعض الشيء. يقولون أنه أصبح مجنونا، ومن الوارد أن لديه سلاح ».

— هلا تفضلت وأعددت لنا القهوة ؟ أتخيل أنك تفقدت المكان وأنهم نصحوك بمصادرة سلاحي، أليس كذلك ؟ خاب ظني فيك يا سيد لعبيدي. ما هو اسمك ؟

— عبدو. لا أعرف إن كان لديك سلاح، الأمر لا يهمني. لست هنا كعدو. أنا...

— داخل خزانة المكانس، على اليسار عندما تدخل إلى المطبخ. دعني أرافقك. إنك لا تريدني أن أفارق نظرك وأنا أتفهم ذلك. خذ هاتفي. إنه فارغ. يعرفون كل شيء عني لكنني أردت أن أعقد مهمتهم رغم ذلك.

— هيا إذًا، سيد لحسن...

— ناديني جو، كف عن التكلف. لقد دخلت إلى منزلي كما لو كان طاحونة وجلست دون أن أدعوك لذلك. أحب هذا. لكن عبارات « سيدي الرئيس » و« سيد لحسن » تتعارض مع الباقي، ألا تظن ذلك ؟ استرخي قليلا إذًا يا عبدو. فلنستغل هذه اللحظات للحديث دون مراوغة. إنني كالمحكوم عليه بالإعدام، لم يعد لدي ما أخفيه.

يقف جو ويدع إزار الحمام يسقط. فيبقى عاريا. رغم التجاعيد والنحافة إلا أنه يبدو باسلا دائما. يأخذ وقته ليغطي كتفيه ويتجه نحو المطبخ بقدمين حافيتين.

كل شيء مرتب بشكل ممتاز. هناك صحن على الطاولة تغطيه منشفة عريضة. يرفعها عبدو ويتفحص الوجبة. سلطة خضراء وفلفل مقلي وقطعتين من اللزانيا. إنه جائع. يراقبه جو. لم يتعلم هذا الشاب قواعد اللباقة.

— هل تريدني أن أسخن الأكل ؟ ألا تطعمكم جريدتكم جيدا ؟

— لا... أقصد لا، لا، شكرا. لماذا لديك سلاح ؟

— هل بدأنا ؟ إن أصررت فبإمكاني أن ألبس لأخذ الصورة. أو انتظر، لدي غطاء يمكنك استعماله. انزع سروال الجينز هذا، كلما كنا عراة كلما استطعنا التعري.

لطالما كان جو متألقا، وضاحكًا خاصة. إنه أمر مهم. متألق، نعم، هذه هي الكلمة المناسبة. يتذكر عبدو خطاب التنصيب : « أحلامنا تتحقق أخيرا. لقد ولى عهد الظلم والخراب والحرب. نحن مرهقون لكننا عازمون. معكم وبفضل مساندتكم، سأحقق حلم شمال إفريقيا الحرة التي تحلو فيها الحياة... ». في ذلك الوقت، لم يرد أحد سماع إشارات عقلية الزعيم رغم وضوحها تحت ترجيف الصوت والأكمام المهتزة. تقبل الناس مشروعه لأنه كان يبدو مبدعًا. نفس الشيء بالنسبة إلى هذه الفكرة، حجر أساس خطته : منع تراكم الأملاك وإلغاء الميراث. كان الأمر بسيطا جدا بالنسبة إلى الجميع وبدأ إنقاذ السكان من الفقر. كان يجب تكميم بعض الأفواه طبعا. كان لا بد من ذلك ووافقنا هذا الرأي.

— بماذا كُنتَ تحلم ؟ أتذكر مقالاتك الإطرائية عن شخصي. أتعتقد أنني أستحق ما يحدث لي ؟

— ألّا تكون هناك سجون.

— عفوا ؟

— كنت أحلم ألا تكون هناك سجون.

— هاها ! صحيح أنك كنت لا تزال شابا، قبل ثمان سنوات. ماذا عن اليوم ؟ لقد نجحت ثورتنا، أليس كذلك ؟

— لا وجود لها. كل منطقة تختار بكل ديمقراطية. انتخبنا هنا، في منطقة الجزائر الكبرى، ولم يعد لدينا سجون.

— أين سيضعونني إذن ؟

— كنت أقصد : لا سجون جديدة. ولن تسجن على كل حال. ستحاكم وتعود هنا إلى منزلك.

— أأمل أنكم ستتركون لي عتيقة. لا أحتاج غيرها وهي متفانية في خدمتي.

التفت عبدو صوب الخليج. يسند كل منهما كوعيه إلى الحافة الرخامية.

— أنظر إلى شجرة الزيتون هذه. أليست فريدة من نوعها ؟

تتفرع شجرة الزيتون الضخمة في الجهة الأخرى من المسبح أين ترتعش أوراقها الفضية وتلمع. تقف الشجرة كالحارس لحماية ممر صخري نحو ما يبدو أنه غابة. تحاذي أشجار صنوبر لها شكل مظلات أشجار كاليتوس ضخمة جددت لحاءها دون شك لمنافسة جمال الصنوبر وتخلت في ذلك عن أغلب أوراقها ولم تترك سوى الأجزاء العلوية. أشجار سنط عديدة تشبه الرنف الملكي بأزهارها الزرقاء والصفراء والحمراء تلتحق بها في الأعلى أشجار سرخس خضراء غامقة. هناك في الأخير باركية لا يرى منها من بعيد سوى بقع متعددة الألوان تتحرك، حتما تحت تأثير الريح أو عند مرور

الفئران أو الأرانب أو الكلاب أو القطط أو أبناء عرس، أو أي حيوان بري نحزره بسهولة إن أنصتنا جيدا.

— لقد غرسها والدي. إنها ملكي. أما الباقي، كل ما يحيط بها فقد وهبته. في ذلك عدل وإنصاف. الغابة التي تراها في الخلف مصنفة كمنطقة لا يمكن السكن فيها. المسبح لايزال ملكي فهو مرتبط بالفيلا، حتى وإن كان « *سمارت* » ينصح باستقبال تلاميذ المدارس فيه. إن شئت تستطيع المجيء مع أصدقائك (يشعر جو بألفة متزايدة تجاه هذا الشاب الفظ وغير المهذب). سوف يزودني ذلك ببعض الصحبة. بعد موتي سيهب « *سمارت* » المسبح لشخص آخر. في انتظار ذلك، بإمكانك أن تأتي للسباحة. إن أردت.

يلتفت عبدو نحو محادثه. يتقابلان الآن وهما لا يزالان متكئان على الحافة. يريد التقاط نظرته لكن عيناه تقعان رغما عنه على أعضاء جو التناسلية المتدلية.

— هل اتفقنا ؟ ستأتي مع شلتك ؟ هيا، صافحني.

— لا تلمسني ! الآن فقط كنت...

— ...أحك خصيتي ؟ كلنا نفعل ذلك، لا ؟ لقد دخلت عنوة إلى منزلي وأنا تحت رحمتك. أنا لدي على الأقل الحق في أن أتصرف على راحتي في بيتي. وفوق ذلك، أنظر، أنا نظيف. أنتف الشعر وأضع حتى العطر في بعض الأحيان.

نظريا، لا يجب أن ينصدم جو من أي شيء مما يحدث هنا. لطالما تظاهر بكونه حر الجسد والتفكير. يعلم أنه ليس لدى هذا العجوز العاري الذي يقابله أي أمر يستحق الاحتقار. فلم إذًا هذه الرغبة في التقيئ ؟ لماذا هذا الاستياء من الطبيعة عندما تفرض نفسها على الأحاسيس بكل ثقلها الفج وغير القابل للهضم ؟ لماذا يشعر بالاعتداء إلى درجة الغثيان ؟

لما غادرته صوفيا، شعر عبدو بالارتياح. وهو يحن إليها رغم ذلك. لكنه لم يعد يحتمل رائحة جلد رأسها التي تطفو في الحمام وعلى وسادته. كانت قد قررت ألا تغسل شعرها إلا مرتين في الشهر لكي لا تتلفه، حسبها. كانت تضع مسحوقا على شعرها في بعض الأحيان وتسمي ذلك غسولا ناشفا. لم يجرؤ أن يعاتبها على الأمر لكن هذا « التفصيل »، كما كان يظن حينها، أفسد علاقتهما تماما. ألم تعد تحبني ؟ لماذا لم تعد تداعبني ؟ كان يجيب : بالطبع أحبك. لا تتعلقي بهذه التفاصيل. ثم جاء يوم قررت فيه فجأة أن تغسل شعرها وتمشطه مطولا، لكن الأمر جاء متأخرا، فعلت ذلك لشخص آخر. آخر حدثها حتما بصراحة أكبر.

— غالبا ما تتحكم فينا ذاتيتنا وهي التي تعطل تفتح الذهن. إن حكمت على الآخرين حسبما تمليه عليك

ذاتيتك، فلا قيمة لك. أنت تبدو أنيقا لكنك مُغلّفٌ بسروالك الجينز الضيق. من الواضح أنك تتعرق كثيرا داخله. لا أرى مانعا في أن تريح نفسك. ستبقى مهمتك المستقبلية أن تنقلب على الأخلاق.

— لا يتبنى البرنامج فكرة حتى تتقبلها أغلبية مهمة، عندما تغزو مشاعر الجميع. يبحث «*سمارت كاونتري*» أولا عن الرغبة العاطفية لدى الأفراد الذين يشكلون عينة، ثم...

— عندما صممته، كان يكتفي باقتراح حلول تقنية لمشاكل البقاء وللرغبة في الإنصاف. ممتاز، نحن نحرز تقدما. أخبرني، هل لا زلت تحلم ؟

لم يكتب عبدو شيئا في دفتر أحلامه منذ عام على الأقل. ماذا رأى في حلمه الأخير ؟ كان يقطع تامزغا كاملة على ظهر دراجة والأراضي الخصبة تملأ المكان حتى أعماق الصحراء. لم يكن يرى سوى المنازل المنخفضة وسط حدائق خضرواتها، وشابات عاريات تتحممن في الأنهار. يراقب جو الرجل الشاب ويخمن الابتسامة خلف فمه العابس.

— إذًا ؟

يظهر له حلمه فجأة بوضوح تام. العري حتما لكن حسب معاييره هو. لخدمته هو. جميلات مهداة لاستهلاكه هو فقط. أما جو فقد كانت له أحلام أكبر وأكثر نبلا.

يرى عبدو مجددا ويحس بشدة بالحال الذي وضعه فيه هذا الحلم الذي لا زال يسعى وراءه في الحقيقة. رغبة لا متناهية لم تُشبع أبدا. أليس الحلم سوى تجل لرغبة الاستياء الشامل ؟

— ماذا ؟

— هل تستطيع فعل ذلك ؟ هل تستطيع تحقيق حلمك ؟ تذكر أنني تجرأت على الأقل. قبل ثماني سنوات، كنا نحلم كلنا أن يكون لنا سكن لائق. قمت بإلغاء الميراث وتراكم الأملاك العقارية والأراضي. صُمِم « *سمارت كاونتري* » من أجل هذا. شيء صارم، هاه ؟ ثم فرضت قوانين أخرى نفسها علينا. وأذكرك أنه تم التصويت عليها كلها بالأغلبية الساحقة. لا تستطيع أن تتخيل كم كان معقدا قانون تحديد النسل. لكن الناس الآن سعداء لأن لا أحد يعاني سوء التغذية. يتم احتساب عدد الأطفال كل سنة حسب احتياجاتنا. أمر منطقي. أين وصلنا ؟ مليون ولادة هذا العام، على ما أعتقد. لم يكن إقناع الكل بهذا مهمة سهلة. لكن الكل لديه سقف الآن، الجميع يختار مكان عيشه وعمله. سمينا هذا : الحق في المتعة. أليس هذا جميلا ؟ كانت لنا الجرأة ونجحنا.

— على ما يبدو، نجح الأمر نجاحًا باهرًا معك فوق اللزوم بالنسبة لك.

يصمت جو مطولا. يبدو وكأن السن تقدم به عشر سنوات فجأة. تثقل كتفاه ويشعر عبدو بالشفقة تجاهه.

— لماذا فعلت ذلك ؟ أنت تعرف جيدا أن البرنامج ينتبه لكل شيء.

— عولت على ثقة أبناء وطني. لقد أعطيت الكثير لهذا البلد. وحالتي...استثنائية.

— ما الذي يجعلها كذلك، سيدي الرئيس ؟ (يفاجئ عبدو نفسه بمناداته بـ « سيدي الرئيس » فجأة. لكن الأمر ليس عفويا. هذه التقنية القديمة قدم العالم تستعمل لترويع المحادث بتذكيره بدرجة مسؤوليته في الوقت المناسب).

— ليس هناك شخص عاقل، حتى أنت لست كذلك، والأمر أفضل هكذا. أعرف هشاشة الأشخاص الذين أحبهم. هشاشة البشر هذه يجب أن نجعل « *سمارت* » يأخذها بعين الاعتبار.

— يقوم « *سمارت* » بذلك، المعاقون والـ...

— لا، أنا أتكلم عن شيء آخر. من الصعب التعبير عن ذلك. أتخيل أنه ليس لديك أولاد. يمثل ابني نقطة ضعفي.

يلاحظ عبدو متأخرا أنه لا يتحمل أن يعتري الحزن وجه هذا الرجل الذي أحبه كثيرًا.

— لكني لم أحك لك حلمي بعد.

— رأيتك تبتسم. يكفيني ذلك.

يستسلم جو لأفكاره. يعرف أن نزاهته كانت حاسمة لما تم انتخابه. بعد عشرات السنين من الكذب والسرقة وبعد حروب لا جدوى منها ولا نهاية لها، جاءته الفكرة أن يقترح على الناس التعبير عن أحلامهم الأكثر جنونا وأن تعمل مجموعات على تحقيقها في كل مكان. كان يجب أن يدون مقابل كل حلم مدى إمكانية تحقيقه. كان يجب التفكير بجدية. نتج عن هذا غليان رائع، وفوق ذلك، فكرة إلغاء الملكية «لصالح (حسب المشرع) التمتع المطلق بالأراضي والأملاك، مقسمة بكل شفافية وبكل إنصاف». كان جو جد فخور بإنجازه. فكر فيه مطولا وطالع واشتغل. أحاط نفسه بأفضل المبرمجين والاقتصاديين وعلماء الاجتماع والمؤرخين في المنطقة ووضعوا مع بعضهم البرنامج الذي طبق فكرته.

كم كان الأمر مؤثرا يوم 5 جويلية 2025 التاريخي عندما اكتشف العالم كله برنامج «*سمارت كاونتري*»!

صارت شمال إفريقيا قدوة في الاختراع الأكثر إنسانية في العالم. ما سمح للفكرة الإلغائية أن تنتشر، طبعا، هو أن أغلب الشباب والفقراء في كل جهات تامزغا الموحدة حديثا، كانوا يريدون تسوية حساباتهم مع التقلبات الانتحارية للرأسمالية المحتضرة. هذه الأخيرة، وبعد أن صرعتها الثورات السلمية المتتالية

والتي انتشرت في أرجاء العالم، اقترفت خطأها الأخير بتقليصها للحريات الأكثر أساسية بواسطة أسلوبها الماكر الذي سقط عنه القناع : « تلفيق الموافقة ». انطلق السباق الأكثر جنونا، صوب تجميع الثروة لصالح أولئك الذين يمتلكونها من قبل. ومع ذلك، فإن « *سمارت كاونتري* » أدان هذه الممارسات اللامنطقية والظالمة، ووضع حدًا لها. يذكر أن جو كان يحب أن يكرر، « لا، البعض ليسوا أكثر تساويا من البعض الآخر، كما لمّح بسخرية جورج العظيم (صاحب البصيرة المذهلة الذي عاش في القرن الماضي) ».

كانت هناك اعتراضات بالطبع . والغريب أنها جاءت من عند أولئك الذين يدّعون أنهم « تقدميون ». توقع جو ذلك في أعماقه. وحتى أنه انتقم سرا من هؤلاء. تعرف على هذه الطبقة من المجتمع لمدة طويلة، تردد عليها وأحبها وكان معجبًا باستقامتها الناتجة من تراكم النضالات والمعرفة المشتركة ومن التضامن الفعال. بمرور الوقت، تحول إعجابه إلى صداقة لطيفة، تلك التي يشعر بها المرء برقة تجاه حديث رجل عجوز، بتعبيرات مهترئة ولكن صادقة. ثم جاء وقت الإحباط وخيبة الأمل. تلك التي شرع فيها هؤلاء الرفاق المناضلون من أجل قضايا الطبقة العاملة، أعداء رأس المال كما كانوا يقولون، في تجميع الثروات، والتباهي بها أمام أولئك الذين لازالوا يؤمنون. اكتسبوا دون

وعي وبلامبالاة كبيرة، وحتى في إيماءاتهم ومواقفهم، ذلك النوع من تكبر الأثرياء، الذي ربما كان دائمًا يفتنهم. لقد انتقلوا بلا خجل إلى الجانب الآخر من النهر. نقلوا الكنوز إلى أوروبا خلال الحرب الأخيرة، لضمان مخبأ مريح، بينما أطلقت النار على رفاقهم يوميًا في المدن المكتظة بالسكان.

ثم عادوا في الوقت المناسب للانضمام إلى الثورة السلمية، وأرادوا أن يفرضوا مرة أخرى خطاباتهم المنتهية الصلاحية. لكنهم فشلوا فشلا ذريعا في المعركة التي خاضوها ضد جو. لأنهم ورغم كل شيء، كان عليهم أن يوافقوا على فكرته لأسباب أخلاقية أمام العالم. وفي الخفاء كانوا يتحايلون حتى لا يتم « تجريدهم » من ثروتهم. وهذا يعني فعليا وجوب هزيمة الخطة التي تظاهروا بالتمسك بها. كان عليهم، بطريقة ما، أن يقوموا بالثورة والثورة المضادة في آن واحد.

كانت زهرة، زوجة جو، مدعمة جدًا لإصلاحاته. لقد عاشوا فترات سعيدة، حسبه.

لاحظ عبدو ابتسامته. اقترب الضيف في هذه الأثناء من الصحن وسرعان ما التقط قطعة خبز قبل أن يهم بتناول الفلفل، منتظرًا أن يستفيق الآخر من تفكيره الحالم.

كافحت زهرة كاللبؤة من أجل إلغاء قانون الأسرة في جميع مناطق شمال إفريقيا. في تونس السابقة، كان الأمر محسوما. لطالما كان للمرأة حقوق هناك. كان يجب التنقيب في النصوص الدينية والاجتهاد في إطار المذهب الحنفي الذي يحرم المرأة من الميراث في كل الأحوال. كان من الأسهل تعميم عادة على كافة السكان. أن يحرم الجميع من الميراث باسم الإنصاف. يجب أحيانا تعميم المستوى الأدنى. يرضي ذلك الشرائح الأكثر فقرا. يكون الباقي أكثر جبنا من أن يحتجوا بقوة.

سافرت زهرة إلى كل المناطق، جمعت توقيعات جميع النساء، وحثتهن على الإدلاء بشهاداتهن حول الواقع الذي فرض عليهن (اعترفن علنًا أنهن أُجبرن على تحمل تعدد الزوجات والعنف الزوجي، من أجل الاحتفاظ بميراث ضئيل يشاركن فيه أبناءهن). كانت زهرة، في كل مرة، مذهولة أكثر من كم المعاناة والبؤس المسكوت عنهما. لقد واجهت كارهي النساء من جميع المشارب، المدعومين من طرف أمهات وزوجات وبنات هؤلاء السادة أنفسهم (على الرغم من أن بعضا من اللواتي أطلقت عليهن لقب « القديسات »، ولأنهن أعجبن بلحاهم وبتلميحاتهم المستمرة للكتب المقدسة وأقوال الأنبياء، انتهى بهن الأمر أن ساندن قضيتهن). كشف أمرهم عندما فهم الجميع أن تدخلاتهم المتكررة

كانت تخفي جهلا ونقصا شديدا في الثقة بالنفس. اختفوا واحدا تلو الآخر. ولمواجهة الفراغ الذي تركته سلطتهم المتقلصة في حياتهم، اخترع الأكثر تشددا من بينهم معارك أخرى للروح، متخلين، بالنسبة إلى البعض، عن ملذات الحياة الدنيا.

ظهرت منذ ذلك الحين المساجد المسكونية كمعابد للمعرفة والتسامح بين الأديان، حتى في أكثر المناطق عزلة. يكرس مجندوهم أنفسهم طوعًا، بين ساعات التدريس والتأمل، لتطوير الزراعة في البيئات القاحلة والتي طورها برنامج واسع يصيغه « *سمارت* » منذ عامين، من أجل الحفاظ على موارد المياه في تلك المناطق.

على الرغم من ذلك، خاضت زهرة كفاحا دون رحمة ضد عقول أبناء بلدها الضيقة، لدرجة أنها اكتسبت كراهية ضد النوع الذكري. وبطبيعة الحال، اختارت شريكةً وزوجة أصبح معها، حسبها، كل شيء أبسط بكثير.

كانت زوجتها الجديدة بعمر ابنهما الأكبر، ولم يجد هذا الأخير شيئا يفعله أفضل من الوقوع بعنف في حب « زوجة والدته ». كان لا بد من إبعاده. التحق بمدرسة الهندسة الترابية في قفصة، لكن سرعان ما أصبح الصغير مغفلا متعجرفًا وغبيًا. عندها قام جو، سرًا، بتناسي قطعة أرض خدمها والده منذ

وقت الاستعمار عندما صرّح بأراضي أجداده التي تنازل عنها للدولة. كان يريد أن ينقل لولده الشقي هذا شيئا من عظمة أجداده المنقوشة على قطعة الأرض هذه. ورغم أن الحكاية كان يتهامسها البعض في القرية أين استفاد جو من تساهل القبيلة معه نظرا إلى فخرهم بمسار ابنهم الذي رفع بلدته الصغيرة إلى مرتبة « معقل » الثوار، فقد تم الإعلان عن هذه القضية بعد مراجعة قوائم تخصيص الأراضي. تم اكتشاف حقل من أشجار الزيتون تواصل استغلاله باسم عائلة لحسن. كانت الفضيحة أكبر لأن الرجل خان بهذا المبدأ الأساسي لنضاله.

— ستستفيد من الظروف المخففة. الكثير من الناس يحبونك.

— إذا وجب أن أدفع الثمن، فليس لدي الكثير من الأصدقاء، عكس ما تظن. يفرك خصومي أيديهم في هذه الأثناء. لم أحاول أن أكون حذرًا، فالجميع يعلم أن ابني عديم الجدوى. لذا، نعم، أردت أن أنقل إليه ما غرسه فيَّ والدي، جده : حب أشجار الزيتون. يحتاج بعض الناس إلى التجذير لبناء أنفسهم.

— لقد دست بالأقدام على المبادئ التي دافعت عنها بنفسك. تلك الحقول لم تعد ملكًا لك. ابنك...

— لا يهتم بتاتا.

— كنت تتوقع امتنانه ؟

— لا. كنت أتوقع بعض الحب. هل تعلم أنه يكرهني ؟

— لا أعتقد ذلك. لكن هل أحببته أنت بطريقة ملائمة على الأقل ؟

— سؤال جيد. الحب هو بالتأكيد أصعب شعور يمكن إرضاؤه أو إعطاؤه... لا أعرف ماذا سيحدث له بعد المحاكمة. لن أتحمل أن يسجن طفلي، حتى وإن كان ابني هو ابليس نفسه.

— إنه مطلوب لدى السلطات. سيحاولون إثبات درجة تواطئه. ربما تعرف أين هو ؟

— لا. ولكن إذا وجدته فسأبقيه معي هناك.

— ماذا عن والدته ؟

— ماذا عنها ؟ لا علاقة لها بكل هذا.

— أعرف ذلك، لكنها امرأة حكيمة. ما رأيها في كل هذا ؟ لم تحدثني عنها بعد.

— والدته تغار من ابننا. وهذا يعني درجة عدم وعيها. يجب أن يتوقف هذا الجنون في الأخير. أنا المسؤول الوحيد عنه.

— لكنه في الأربعين من عمره !

— أنت لا تستطيع أن تفهم. ليس بعد. ذلك الشعور في الأحشاء. نموت مع كل معاناة تمس الأشخاص الذين نحبهم. غالبًا ما تخبرني عتيقة، بحكمتها العظيمة، أن

الموت طوال الوجود أسوأ من الموت. هي تفهم نفسها. الآن فهمتها أيضًا.

ينظر عبدو صوب طبق اللازانيا. هل يجرؤ على تسخينها ؟ قد يعطي الانطباع أنه لا يتعاطف مع جو، الذي لم يعد سوى رجل عجوز فقير ومضطرب. يسمع فوقهم ضجيج أصم يشبه السقوط. ينظر جو نحو السقف. ثم ينظر إلى عبدو مبتسمًا. بهدوء.

يجلس الإثنان الآن متقابلين ويشغل عبدو جهاز التسجيل.

كفرناحوم

عتيقة بلحسن

يوم 49 جويلية 2199

لم نكن حطامًا جنح على شواطئ بيوت الدعارة عندما فتحنا لأول مرة سيقاننا مقابل ضمان وجبة عشاء. مثل كل شيء، تصدأنا بسبب التلف. بعد المرة العاشرة مقابل بضع مئات الدنانير، بعد المرة المئة أو الألف لمن لهن روح قتالية عالية، أصبحنا مسحوقات. تراكمت أجساد الرجال كمليون سعفة في ذاكرتنا التي يسكنها السأم، ولم نعد نحسبها.

تعرفت على منال في حديقة مجرمين في وسط المدينة. كانت تحمل طفلا في أحد ذراعيها وكلبا أرجنتينيا في الآخر. كالمجنونة التي تقطع أظافر أصابع قدمها وتأكلها، وبتراكم النظرات والصور، استرقت لمدة أسابيع من هذا الكلب ابتسامات وكشرات، وقد أيقظ في داخلي ما اعتقدت أنه ميت : حنين غير مؤلم

لسنين شبابي، عندما كنت اتسكع في شوارع الجزائر العاصمة، برفقة كلبي الستاف الأمريكي.

متسولة في النهار وعاهرة في الليل. كانت منال تتفاوض على مهبلها مع حراس الحديقة : مقابل خمسمائة دينار، كان لها ركنها في الجناح الغربي حيث يمكن أن تدع طفلها يستلقي وأن تغفو لساعات قليلة قبل الفجر، تاركة الحراس لبيراتهم وزطلتهم.

كانت سمات وجهها الشارد تشبه كثيرا سمات وجهي عندما هربت من والداي قبل ثلاثين سنة، لكن ليس هذا ما سكن بالي المنهك فقد صادفت الكثير مثله. بل اهتز كياني كله من أجل الأرجنتيني. مضى شتاء كامل قبل أن تأتمنني وتترك الكلب برفقتي، بشرط زيارته يوميا. انتهى بها الأمر أن استحمت وتناولت وجبة في بيتي، ثم قبلت ملابس للشتاء وفراشا. مع نهاية الشتاء صار الطفل يناديني « مما ».

يوم 12 فيفري 2200

رحل ولن يعود.

رأيته بأم عيني، بقلبي المجروح. لم يبق منه سوى شاهد قبر وقليل من الوحل، أين نبت صبار بثلاثة رؤوس.

لم يأخذ لا عيادته ولا مشرطه، ناهيك عن شهاداته. في النهاية، يرقد الفرعون الذي كان يحلم بضريح بشكل رصين وسط صف من الجثث الأخرى. لن يعرف أحد ما إذا كان متسولاً أم طبيبًا. لن يعرف أحد أن ابنته كانت عاهرة.

وأنا،

وأنا،

أحفر غددي الدمعية منذ أسبوعين باحثة عن شبح دمعة أو ظل مخاط يؤكد لنفسيتي المختلة أن والدي مات بالفعل. أراقب الليالي الطوال وهي تمضي، بانتظار الحلقات القادمة من فقدان الشهية، أزمة القلق ودوار الثمالة ليعلنوا بداية نزولي القادم إلى الجحيم. أنتظر هزة من لا وعيي ترمي بعض الملح في مناخيري لمنعي من التنفس أو لتعطيني الرغبة في أن أرمي بنفسي في خزان ماء.

لكنني،

لكنني،

أنام ملء عيوني وآكل بشراهة منذ أسبوعين. أضحك كالطفلة وأمشي ليلا إلى الميناء.

لقد مات وتخلصت منه.

لقد مات ولن يعود.

لن أبكيه. كما لم يبكني لما كبلني في قسمه الجراحي، مدخنًا غليونه أمام سقالتي لكي ينتزع جنيني من

أحشائي. كنت أبلغ سن التاسعة عشر. « أرسلتك إلى العاصمة لكي تعودي بشهادة جامعية وليس بابن زنا » ! كان يصرخ وهو يرفع جثة ابنتي الملطخة بالدم. « لو لم يظهر هواري المسكين تعاطفه بزواجه منك ومسح العار من منزلنا لكنت اقتلعت رحمك كله ».

هربنا تلك الليلة، أنا ورحمي.

يوم 17 مارس 2200

— هل رأيت كيف يأخذون أنفسهم على محمل الجد في التلفزيون ! هؤلاء المسنون ذوي الأشناب، المخنوقين بربطات أعناقهم، وأولئك البورجوازيات الصغيرات اللواتي يمسحن مؤخراتهن بالقطن، يتواجهون ويمزقون بعضهم، يخوضون نقاشات مهولة منذ شهور لكي يغيروا في القاموس، الذي لم يعد يطالعه أحد، كلمة « دعارة » ليستبدلوها بـ « عمل الجنس ». هكذا، بضربة عصا سحرية، يزعمون أنهم سيغيرون مكانتي في العالم من خلال شطب أربعة مقاطع لفظية من القاموس. وماذا بعد ! من المستوى الأول : « لاحسة قضيب مبتدئة »، هل يمكنني الصعود إلى المستوى الثامن، مستوى « فتح الساقين إلى حد أقصى » ؟ لا، شكرا، أنا لا أريد هذا المسار المهني. كل ما أريده هو

أن آخذ ابنتي وأغادر هذا المكان... ألا يرغبون أيضًا في اختبار مستوانا خلال عروض عامة ؟

إن كان « الحوار الوطني الكبير » حول مستقبل مؤخرتي يثير فضولي، فهو يجعل منال تفور غضبا.

— تقولين ذلك لأن عمرك لا يتجاوز الثلاثين ولا يزال لديك أمل. أنا، أبلغ من العمر خمسين عامًا، وأعتقد أنه كان من الأفضل لو جرى هذا الحوار عندما كنت في الثلاثين من عمري، تعلق نعيمة.

— بمناسبة عامك الخمسين وإن كانت هذه الجزائر اللعينة لا تزال تريد أن تفيدك في شيء، لتمنحك سكنا ومعاشا، والتأمين الطبي والعلاج النفسي المجاني مدى الحياة لإنقاذ القليل من الخلايا العصبية المتبقية لديك. هذا ما يفترض أن تفعله دولة مليئة بالنفط لمواطناتها، وليس بناء أكشاك عامة لهن حتى يتمكن زبائنهن من تقطيعهن دون عقاب. إلى جانب ذلك، ما هذه الوظيفة التي يجب تليين فتحة الشرج فيها كل نصف ساعة لئلا يلجها قضيب غير مرغوب فيه بالقوة ؟

— أنت محقة. انظروا إلى وجه *الحلوف* الذي لا يفهم أن رغبة العاهرة الوحيدة هي رؤية بيوت الدعارة تحترق.

— « يرحم *بابكم*، *طفيو* رب التلفزيون، وإلا فسأكسره » ! صرخت من مؤخرة الغرفة شريفة، التي اعتقدناها سكرانة ونائمة.

— يحصل الناس على شهادات، يكتبون سيرًا ذاتيةً، ويخوضون مقابلات العمل للحصول على وظائف. وأنت، والديك يلقيان بك في الشارع، فيعطيك مفترس بعض الدنانير لينيكك بدلاً من شراء الحليب في سبيل الله لطفلك الباكي. لم يكد يكن لديك الوقت لمسح نفسك للتخلص من رائحته الكريهة، حتى يتم إطلاق نقاش وطني لإخبارك أن هذه هي وظيفتك !

انفجرنا كلنا بالضحك. نظرا إلى ما وصلنا إليه، من الأفضل الضحك على حالنا من البكاء عليه.

يوم 10 جويلية 2201

— ذهيبة بن مختار.

— حاضرة، سيدي القاضي.

— بنت مصطفى ؟

— نعم، سيدي القاضي. أنا ابنة أبي تماما مثل أخوتي الأوغاد.

من الجزء الخلفي من قاعة مجلس القضاء المخيف والكئيب هذا، قاموا بفحصي بنظرة تشبه المسدس. أبادلهم نفس النظرة دون أن أبعد النظر.

منال على حق، لن أترك لهم سنتيما واحدا، ولا حتى صحنًا، ولا درجًا واحدًا في أي خزانة مكسورة.

سأحرقهم أو أذهب لرميهم في بئر عميق في السنغال، أيا كان. لكنني لن أعطيهم أي شيء. وحده سجل العائلة ما زال يقول أن والدي كان لديه ذرية كثيرة، لكننا لم نكن أبدا عائلة.

تجمعوا كقطيع كلاب في نهاية الرواق، أرغموا أنفسهم على تصديق أنهم إخوتي. القطيع ضد العاهرة، يتخيلون بالتأكيد أنهم قادرون على التهامي حية.

لم يرافقني أحد في ذلك اليوم، لكنهم اشتبهوا في أنني إذا كنت حاضرةً في جلسة الاستماع الأولى هذه، فذلك لأنني لم أكن حقا وحيدة أو تحت رحمتهم تمامًا.

« ليس محكومًا علينا بالموت مختنقات بقضيب نذل. في يوم من الأيام، سأعض خصيانهم ونهرب على بعد عشرة آلاف كيلومتر من هنا ». أرادت منال قتلهم جميعًا : ذوو الرائحة الكريهة، المرضى نفسيا، أصحاب الأنوف الكبيرة وكثيفو الشعر، البدينون والنحيفون، ذوو الأسنان المتسخة والأقدام الكبيرة، ذوو الآذان الصغيرة وذوو البثور، ذوو الخصى المجعدة والبطون المترهلة... كانت ترغب في تمريرهم جميعا في مفرمة اللحم.

« ألا تعتقدين أنهم سيكونون أكثر فائدة للبشرية في شكل طعام للكلاب ؟ ماذا لو أطعمنا الملتحين الذين يرتادون بيوت الدعارة من أحشائهم ؟ »

في وقت مضى، عندما كنت مدفوعة بحماسة الشباب، كنت أفكر في تمريرهم جميعا تحت مقطورة شاحنة. على الطريق الذي يفصل بين بيت الدعارة في الدرب والمدينة الجديدة، تخيلت نفسي على دراجة نارية، أسحبهم في مهب الريح بحبل حول رقابهم. تركتني هذه الحماسة في المرة التاسعة والخمسين بعد المئة بالضبط، عندما ضغطت يدا المعتدي على رقبتي تحديدا، وسحقت حنجرتي.

« حسنا يا ذهيبة، ما حدث قد حدث، ولا يوجد شيء آخر يجمعنا. أنا أتصل لأخبرك أن والدك مات دون أن يقرر حرمانك من الميراث. أنت تعرفينه، لطالما كان يخشى كلام الناس، لكنه لم يتخذ أي خطوات لحرمانك. كان يخبر الناس أنك توفيت في الخارج، حتى صدق ذلك بنفسه على مر السنين. بالنسبة إليّ، لم أعترف له أبدًا أنك تعيشين على بعد بضع كيلومترات منا. أكلمك وأجرؤ على الاعتقاد، بعد كل هذه السنوات، أنك لا تريدين الموت في الشوارع ». في الجهة الأخرى من المكالمة، ولمدة دقيقة وثلاث وأربعين ثانية، أمي. لم أسمع صوتها منذ ثلاثة وعشرين عامًا.

بعد بضعة أسابيع، تم تزيين شارع *غامبيتا* بخيمة خضراء جديدة وإضاءة جديدة: وحد الجيران والأقارب رثاءهم لمرافقتها إلى مثواها الأخير.

ماتت. الورم الذي التهم والدي من خصيته التهمها هي من رحمها.

تخلصت منها هي كذلك.

عسى الله أن يتقبلهما معا في جحيمه الشاسع .

يوم 1 جانفي 2202

خمسون شمعة وماذا فعلت بها إذًا ؟ أحببت زهور التوليب، والكلاب، والليل، ورائحة الإسفلت، والأزقة الصامتة عند الفجر، بالإضافة إلى سلسلة كاملة من التفاهات الأخرى التي لا تهتم بي، مثل تمثال آلهة سوداء بالكامل عند مدخل مبنى قديم مهجور في المدينة أطلقنا عليه اسم سميراميس. لقد عانيت الدوالي الوريدية والجرب والصداع النصفي المزمن وإحدى عشرة عظم مكسور وفقدان الذاكرة ومجموعة من الحالات الأخرى التي جعلتني أعاني أرقًا دائمًا. لا يهم. ولست نادمًة على قدومي إلى الدنيا ولا على ضياعي فيها. كان ذلك أفضل. ما زلت أشعر بالارتياح لأنني لم أولد في قرن السيدا ومرض الزهري. الحمد لله.

لقد وجدت الحياة مملة وغير مجدية تماما مثل أعلام الدول والسلاحف والأوبرا. معدة آكل عشب غريبة

لا تتوقف عن الهضم. أنظر إلى الوراء كل ليلة إلى هذا العمر الذي مضى والوقت الضائع وأقول لنفسي – صوابٌ أم خطأً، لا أعرف ؟ –إن الحياة أعطتني أفضل ما في هذا العالم : حياة امرأة بين النساء.

خرجنا معًا، تبادلنا ملابسنا، سراويلنا الداخلية وأوانينا، بكينا وتقيأنا وكانت رائحتنا كريهة معًا. نمنا في ستة في غرفة واحدة وأرضعنا أطفال بعضنا البعض. أثقلت جدران بيوت الدعارة أدمغتنا، ولكن نعيمة كانت دائمة التنكيت، وكانت ثمة حماقات شريفة، ورهابُ لامية لتخفيف وزن الرجال على مزاجنا.

لم نكن نحب الجديدات، اللاتي أتين لتوهن، لكن على عكس الرجال، لم نغتصب أيًا منهن أبدًا وبذلنا قصارى جهدنا لضمان عدم ترك أي واحدة منهن تحت رحمة الشوارع. عندما لم يعد الزبائن يريدون أردافنا المليئة بالسيلوليت وأعناقنا المجعدة، كانت الصغيرات تملأن القدور والمحافظ، وكانت الأكبر سنًا تعتنين بالأطفال فيوفرن سقفًا فوق رؤوسهم ودفترَ عناوين. تقاسمت أرباحي مع رقية مقابل زبائنها، والآن منال تخدم زبائني، وتعطيني نصف أرباحها.

بما أنّ الحياة ليست رسوما متحركة يكون فيها الشرير نقيض البطل الخارق تماما، فقد وجدنا في هذه الدورة الأبدية شكلاً من أشكال العدالة أنكره الله والدولة.

يوم 10 جويلية 2203

بينما أتوق لعزل نفسي في قرية بعيدة، محاطة بعشرة كلاب وعشرين قطة وثلاثين دجاجة (وحتى سلحفاة)، تريد الفتيات تنشيط المحركات والركض عكس الريح. لذلك سنقرر برمي قطعة نقود. الوجه من أجل إقامة رعاية نهارية للكلاب والقطط، الرسم لإنشاء تعاونية لسيارات الأجرة النسائية. سقطت القطعة، لقد فزنا وانتهى عهد جمال وناصر وشارف، لن يغتصب أي « سائق تاكسي » فتاة مخمورة عند مخرج حانة بعد الآن، ولن يغرقها في ديون النقل حتى تمنحه ليلة مجانية. من بين جميع الأوغاد، هؤلاء، سائقو سيارات الأجرة هم الأسوأ: إنهم مصاصو دماء حقيقيين.

أؤجل أحلامي إلى وقت لاحق، لكن لن أتخلى عن أي شيء. عشرون جلسة استماع، أربعة محامين واستئنافين، ثلاث سنوات طويلة من المعارك القانونية ضد إخوتي لم تذهب سدى. لدي سقف فوق رأسي بينما أنتظر سكنا اجتماعيا، عض جرذ ربلة ساقي وأنا أنتظر فرقة الصرف الصحي، لكن ابنتي الصغيرة لن تشارك مرحاضها مع 16 أسرة بعد اليوم.

بلدنا لم يعطنا أي شيء ولن يقدم أي شيء للبغايا.
سنخطف نجوما من كبد السماء
ولهيبا من الجحيم،
ولكن سنفعل ذلك بأنفسنا.

نزهة المئوي

سمير تومي

أعبر كل صباح ساحة 22 فيفري كأولى طقوس جولتي الصباحية. وفي رأسي، أسمع نفس الصخب المدوي من الماضي : صخب درج البريد المركزي وهي تزأر بحفيف الصيحات والأغاني والشعارات، صُدِح بها لأول مرة هنا، في هذه الساحة، في 22 فيفري 2019، اليوم الذي بدأ فيه كل شيء. كنت قد بلغت العشرين من العمر للتو، لكن بالنسبة إليّ كانت ولادة ثانية. أصبحت مواطنا ! وبالنسبة إلى والدي، أبناء أكتوبر 1988 المحبطين، كانت ولادة جديدة !

مشينا بالملايين على الإسفلت، في حشود متماسكة وحازمة، في جميع مدن الجزائر. في البداية لم نصدق أعيننا، ثم اندهشنا، وسعدنا، وقررنا وضع حد لنظام حقير، بليد وفاسد كان يخنق بلادنا ويحرمنا من المستقبل. رجال، نساء، أطفال، أغنياء، فقراء، كلهم

مختلفون، يغنون ويرددون نفس الشعارات معًا، في انسجام باه، بأمل مجنون أن الأمور ستتغير أخيرًا.

كان الكفاح طويلاً وشاقًا، وكانت التضحيات كثيرة. النشطاء، المواطنون العاديون أو الصحفيون، سُجِن الكثيرين واستهدفتنا الكثير من الاستفزازات بغرض تفريقنا، جاءت من عند الحكم المخادع والمتلاعب. لكن لا شيء، ولا أحد جعلنا نغير مسارنا، لا نحو الانقسام ولا نحو العنف. سلاحنا الأعظم، السلمية، انتصر أخيرًا وأنشأ نظامًا ديمقراطيًا حقيقيًا. لقد انتهى الأمر بظهور جزائر متنوعة وملتزمة ومسؤولة، ثم تطورت وازدهرت، لتصبح جزائر اليوم، تلك التي أعيش فيها شفقًا سعيدًا، وحيث يفكر أبناء وطني الشباب بهدوء في مستقبلهم.

عندما أسمعهم يتذمرون من النظام الحالي، ويجدون أنه يخنق الحريات، أو اجتماعيًا بشكل غير كاف، أو يشعرون بالإهانة من حقيقة أن الوزير الذي تجرأً على وضع أطفاله في سيارة العمل، لم يُطرد بعد، أتفاجأ أنني ابتسم. تجعلني انتفاضاتهم اليوم فخورا وسعيدا، لدرجة أنهم يؤكدون لي أن تضحيات سابقيهم لم تذهب سدى.

لم تتغير ساحة 22 فيفري كثيرًا بعد كل هذه السنوات. لاتزال حية وحيويَة كما كانت دائمًا،

بكشكها القديم « أزهار الجزائر »، ورسامي اللوحات، وتراسات المقاهي. اختفت فقط الاختناقات المرورية المزعجة في ذلك الوقت، بمواكب سياراتها القذرة والصاخبة والملوثة. أستطيع أن أتذكر نفسي محاولا شق طريقي، بطريقة ما، بدراجتي، وأخاطر بحياتي كل دقيقة، متعرجًا بصعوبة بين المركبات. كنت أمشي على طول شارع باستور، ثم نفق الكليات، وكنت أختنق بينما كنت أسير في شارع محمد الخامس (الذي يحمل اليوم اسم محمد تاجديت)، خلف حافلة إيتوزا زرقاء متعرجة تبصق دخانها الأسود اللزج في وجهي. لا شيء من كل ذلك اليوم، لا يوجد سوى دراجات شمسية، ولوحات كهربائية، وكبسولات قائمة بذاتها، وأقدام أشعة الشمس، وكلها تعمل بالطاقة الشمسية. أصبح الهواء الآن نقيًا في الجزائر العاصمة لدرجة أن مدينتنا أصبحت معيارًا بيئيًا عالميًا. قبل عشرين عامًا، أطلقت والية الجزائر الشهيرة، هـ. سلمى، مشروع الجزائر الخضراء، تحت سخرية وعدم تصديق، وحتى تهكم الطبقة السياسية المحلية بأكملها، الإسلاميون والتكفيريون والليبراليون واليساريون الجدد من حزب ما بعد الإنسانية الجزائري، وحتى من دون دعم حزب البيئة الجزائري القوي. صحيح أن رئيسة الجمهورية في ذلك الوقت كانت تدعم الوالية بقوة، تمامًا مثل العاصميين، الذين كانوا ملتزمين تمامًا بنهجها. تمكنت

من إشراك لجان الأحياء، واستشارة السكان بانتظام عن طريق الاستفتاء، لجميع المشاريع المتعلقة بالبيئة. بمجرد انتهاء مهمتها، تركت سلمى الخدمة العامة لتتقاعد في أعماق الصحراء الجزائرية، أين يبدو أنها لا تزال تقيم.

كان من بين الطقوس الأخرى في مسيرتي، الجلوس على مقعد معلق في ساحة موريس أودان، مقابل « مصباح خالد درارني »، جزء من بقايا أثاث الشوارع من بداية القرن الحادي والعشرين، عمود إنارة بسيط من الحديد مزين بمصابيح وثلاثة ساعات تقلد بشكل مبهج مصابيح الشوارع الباريسية من عصر الفن الحديث. يقف هذا المصباح الأرضي القديم بشكل غير متناسق في منتصف الساحة الحديثة للغاية المصنوعة من الزجاج الشفاف. في كل مكان حولها، تتأرجح المقاعد المعلقة في مهب الريح : إنها واحدة من أكثر الأماكن شهرة في العاصمة.

اعتقل الصحفي الشهير خالد درارني في الجزائر خلال موجة الاعتقالات التي قادها النظام السابق لمحاولة كسر حراك 22 فيفري 2019. كان خالد يصور المسيرات بواسطة هاتف ذكي قديم مثبت في نهاية عمود إنارة، ويقف بدقة أمامه. كان يبث مقاطع فيديو الانتفاضة السلمية عبر ما نطلق عليه « مواقع التواصل الاجتماعي » وقتها. جاء اعتقاله، التعسفي تمامًا، في

خضم الأزمة الصحية، خلال أول جائحة فيروسية كبيرة، في عام 2020، وأثار ذلك غضبًا في جميع أنحاء العالم، مما أجبر النظام على إطلاق سراحه دون قيد أو شرط بعد بضعة أشهر. ثم رفض خالد كل التكريمات والفرص الوزارية ليحتفظ باستقلاليته ويكرس نفسه للصحافة حتى سن متقدم. تم تسمية عمود الإنارة باسمه بمبادرة من المواطنين، يا له من تكريس! واليوم، اعتاد المراهقون في الجزائر العاصمة على التواعد حول عمود الإنارة، دون أن يعرفوا من هو درارني هذا.

بعد هذه الاستراحة الصغيرة على مقعدي المعلق حيث أشاهد رقص المارة المشغولين، استأنف المشي وأسير في شارع ديدوش مراد. لم يتغير شريان المدينة هذا حقًا، بمبانيها ذات الهندسة المعمارية الاستعمارية، ولا يزال شارعًا للتسوق، مكة التسوق التي أعرفها منذ صغري. الاختلاف الرئيسي هو الغطاء النباتي الكلي للواجهات والمدرجات والشارع. يمكننا التمييز بوضوح بين اللبخ في زماننا الذي استعاد شكله الأصلي منذ حظر تقليمه، لكنه الآن يتعايش مع الياسمين وأشجار الزيتون والتين والبرتقال والليمون والمشملة، وتهدي ظلها وثمارها للمارة، كما تنْشُر روائحها العطرة. أفسحت تراسات المباني، التي كانت نائمة في السابق وأحيانًا محتلة بغير حق، وكما هو الحال في أي مكان

آخر في المدينة، الطريق أمام الحدائق المعلقة – حدائق الخضروات أو الحدائق الترفيهية، نجد فيها في بعض الأحيان خلايا النحل. تحت قيادة الوالية سلمى هـ.، عاد العاصميون إلى شغفهم بالحدائق والنوافير والطيور والحيوانات الأليفة.

هكذا صار طائر الحسون، أحد معالم الجزائر العاصمة، يعيش بحرية بعد أن كان مهددا بالانقراض. لم تعد فكرة اصطياده ووضعه في أقفاص تخطر ببال الشباب، الذين يكتشفون الآن غير مصدقين في كتب التاريخ البيئي هذه الممارسات التي صارت تبدو بربرية، لكنها ليست بعيدة جدًا. وبالمثل، فإن القطط والكلاب، التي كانت أليفة في يوم من الأيام، تعيش الآن في مجموعات، في حالة شبه برية، وتتعايش دون صعوبات، مع أسيادها السابقين، البشر، الذين ليس لديهم خيار آخر اليوم سوى مشاركة الأماكن العامة معهم.

أصعد الشارع حتى كاتدرائية القلب المقدس، وأجبر نفسي على عدم استخدام أي كبسولة أو لوحات أشعة الشمس، واستخدام ساقي فقط، كما أوصاني الطبيب المعالج في مستشفى مصطفى. لا بد لي من الذهاب إلى هناك – سيرا على الأقدام ! – غدا لزيارة مراقبة على الساعة 10 صباحا بالضبط. بفضل الله، تمكنت الجزائر من الحفاظ على الطب المجاني تمامًا،

وما زال العديد من منتقديها، مثل أولئك الذين كانوا في زماني، يوجهون أصابع الاتهام إلى سوء رعاية المرضى والتخلف التكنولوجي في المستشفيات الجزائرية. شخصيًا، ما زلت مقتنعًا بأن هذا هو أفضل نظام صحي يجب مراعاته: الحصول على الرعاية الصحية للجميع، حتى لو كان الأغنى يلجأ إلى الطب الخاص الذي يعالج بشكل أفضل، كما في أي مكان آخر. من حيث المبدأ، ما زلت مخلصًا للخدمة العامة، الأمر الذي يثير استياء عائلتي التي بمقدورها التكفل بي بوسائلها الخاصة. طبيبي الشاب، الدكتور بوراوي، الذي أقدره بشكل خاص، هو من نسل طبيبة نسائية معروفة، كانت من أوائل المناضلات، أتيحت لي الفرصة لملاقاتها خلال مسيرات الحراك. كان اسمها أميرة، وتميزت بموقفها ضد العهدتين الرابعة والخامسة للديكتاتور بوتفليقة، وأصبحت إحدى الشخصيات البارزة في الحركة الاحتجاجية لعام 2019. تذكر هذه المناضلة المقتنعة اليوم كمثال من قبل العديد من الناشطات النسويات الشابات. بالإضافة إلى أسلافه الطيبين، فإنني أقدر تقديرًا كبيرًا الدكتور بوراوي على كفاءته واهتمامه بي.

قبل وصولي إلى الكاتدرائية، أمشي بجوار مبنى باراماونت، المعروف باسم الـ 90، في إشارة إلى رقم الشارع القديم، بأروقة تسوقه وواجهته الوظيفية،

مبنى نموذجي للعمارة في الخمسينيات. هو الآن مغطى بمكعب زجاجي ضخم، يقوم بتحويل الطاقة الشمسية وتموين الحي بأكمله. أحب أن أرى السحالي الكبيرة وهي ساكنة، تتشبث مثل كوب شفط على طول الجدران الزجاجية، وتدفئ نفسها في الشمس، غير مبالية بالمستعمرة المضطربة لقرود المكاك البربري التي تقيم منذ بضع سنوات على أسطح البنايات المحيطة. تنغمس هذه الحيوانات الجامحة والرشيقة للغاية في مهنتها المفضلة: سرقة المثلجات والسندويشات وغيرها من الأطعمة من أيدي المارة، لتعزيز نظامها الغذائي، الذي يتكون أساسًا من الفواكه والخضروات الطازجة جدًا والمتوفرة بكثرة في حدائق الأسطح. لقد تكيفت بشكل مثير للإعجاب مع الحياة الحضرية ويشكلون مصدر سعادة للأطفال الصغار، الذين تعلموا اللعب معهم دون مهاجمتهم. وبالتالي أقيس يوميًا التقدم الذي أحرزته البشرية من حيث فهم النباتات والحيوانات، أنا الذي أتيت من وقت كان كل شيء فيه يساهم في تدمير المحيط الحيوي.

أنا فخور أيضًا بأن الفدرالية الإفريقية الموحدة، التي أصبحت الجزائر جزءًا منها الآن، قد أصبحت قدوة بيئية للاتحادات الثلاثة الأخرى على هذا الكوكب: أوروبا الجميلة، الولايات المتحدة الشمالية والجنوبية، وآسيا الكبرى – أوقيانوسيا. كانت الفدرالية الإفريقية الموحدة أول مجموعة من الدول التي صادقت على

وقف استغلال النباتات والحيوانات، بعد معاناتها العديد من الأوبئة والكوارث المناخية، وبعد تحملها للحروب والنزوح السكاني الجماعي. سمح هذا الاتفاق بوضع حد، شيئًا فشيئًا، للنموذج الإنتاجي المدمر في القرنين الماضيين. أدى الحراك السلمي في الجزائر إلى ظهور العديد من حركات الاحتجاج السياسي في جميع أنحاء العالم من دون قادة، فضلاً عن الوعي البيئي العالمي. هكذا أصبح نموذج الحكم الهرمي والمنطق الاقتصادي القائم على التمويل والاستغلال الجامح للموارد الطبيعية موضع تساؤل جذري. وإذا كانت الرأسمالية لا تزال منتشرة اليوم ولا تزال تولد عدم المساواة، فيجب الاعتراف بأن التقدم هائل: الدخل الشامل، والعمل والسكن للجميع، والتأمين الصحي والحد من الأجور العليا. تبدو هذه الحقوق الآن مؤكدة، حتى لو كانت هناك قوى رجعية معينة تحاول تهديدها. وينطبق الشيء نفسه على الفدرالية، التي جعلت من الممكن الجمع بين جميع البلدان الإفريقية، رغم أنف بعض الحركات القومية الأقلية لحسن الحظ، والتي تستغل أدنى توتر اجتماعي أو مجتمعي لتشويه نموذج حكمنا الأفقي.

كان الطريق إلى الفدرالية طويلاً ومعقدًا ومليئًا بالعقبات. أولاً، مع بناء مغرب كبير موحد، تحقق أخيرًا

بفضل انتصار الحراك الجزائري والمغربي، وحلول السلام في ليبيا. ثم تم إنشاء تحالف الشمال والجنوب مع دول غرب إفريقيا، وفي النهاية، كانت الخطوة الأخيرة، وهي الاندماج مع اتحاد شرق جنوب إفريقيا، الذي يمثل شرق القارة. كل يوم، خلال جولتي اليومية، لا يسعني إلا أن أشعر بفخر عندما أرى تنوع الشارع العاصمي : لقد أصبح إفريقيًّا أخيرًا. أتذكر، بألم، المهاجرين من جنوب الصحراء الكبرى في زماننا، الذين تعرضوا للاستغلال والاحتقار وسوء المعاملة، وغرقوا، مثل العديد من مواطني بلدي، في البحر الأبيض المتوسط، أو هلكوا في الصحراء. أتذكر خزيي عندما أمر باولئك الأطفال من مالي، حفاة الأقدام، متسولين على جانب الطريق، ليس بعيدًا عن والديهم الجالسين على الأرض، وكوب بلاستيكي عند أقدامهم. يا له من طريق مشيناه ! ومع ذلك، هل اختفت العنصرية تمامًا ؟ للأسف لا، ولكن اليوم تتوفر كل الوسائل لمنعها ومكافحتها، وأي تمييز على أساس العرق أو الجنس أو العقيدة يعاقب عليه بالسجن.

تهت في أفكاري، وسرعان ما وجدت نفسي أمام بازيليك القلب المقدس، التي بقيت على حالها واحتفظت بوظيفتها كمكان للعبادة. بدلاً من مضخة البنزين ذات الرائحة الكريهة، توجد الآن ساحة جميلة

غرست فيها أشجار الزيتون، بمقاعدها المعلقة المريحة، وحوض صغير، وحفلات الموسيقى الثلاثية الأبعاد، حيث يمكنك مشاهدة أسماء رائعة من الموسيقى الشعبيةوسماعها تؤدي أجمل الأغاني من التراث الشعبي. كما في الماضي، أصوات الزاهي والعنقى والباجي والحراشي تواصل الغناء في شوارع العاصمة، قرب ساحة أو حديقة أو سطح، كموسيقى تصويرية أبدية للمدينة. تمثل هذه المحطة الصغيرة المستحقة عن جدارة في البازيليك اللحظة التي أبدأ فيها بالتعب والشعور بحدود قدرة ساقي على المشي، والتي يبلغ عمرها بالفعل مائة عام، نعم...

أصعد حينها في كبسولة للوصول إلى قمة المبنى الهوائي، وأمنح نفسي بضع دقائق للتأمل في المدينة. كان المبنى سابقًا عبارة عن سكن، وهو الآن مخصص بالكامل للفنانين. أصبحت الدوبلكس الصغيرة، المستوحاة من هندسة لوكوربوزييه المعمارية استوديوهات فنية متاحة للفنانين التشكليين من جميع أنحاء العالم. مشروع آخر للواليّة سلمى هـ.، التي اشترت جميع الشقق الخاصة لأجل إتاحتها للمجتمع الفني. يحمل كل طابق اليوم اسم شخصية من الحراك : كريم طابو، وليد كشيدة، سليمان حميطوش، حكيم عداد وآخرون كثر، بينما تحول الممر التجاري القديم إلى معرض فني ضخم. أحب أن أتجول هناك، قبل أن

أتيه في الطوابق، لزيارة استوديوهات الفنانين المفتوحة كلها للجمهور، وسميت على فنانين تشكيليين جزائريين من جميع الأجيال، ما جعل هذا المكان الذي أحبه كثيرًا نقطة التقاء مثالية للالتزامات الفنية والسياسية. تتيح المدرجات والحدائق الموجودة في العمارات الثلاث، والتي يمكن الوصول إليها مباشرة عن طريق الكبسولات أو المصاعد الزجاجية، الاستمتاع بإحدى أجمل المناظر البانورامية في المدينة. في الأيام الأخيرة، جاء العديد من الزوار لمشاهدة العرض الموسمي لحيتان العنبر والحيتان في الخليج، مصحوبة دائمًا بالرقص المحموم لدلافين الجزائر العاصمة. أمام هذا المشهد الخلاب، لا يسعني إلا أن أبتسم وأنا أفكر في مقاطع الفيديو المتداولة على الشبكات الاجتماعية في ذلك الوقت، والتي تُظهر المظهر غير المتوقع لحوت غير بعيد عن الساحل الجزائري أو لبعض الدلافين التي تسبح حوله. كان تلوث النظام البيئي البحري يجعل هذه المشاهد غير عادية. هذا الصباح، ترقص مئات من الحوتيات وآلاف الدلافين أمامي!

لقد تأخر الوقت وتعبت، وحان الوقت لأخذ كبسولتي والعودة إلى سكوار بورسعيد، حيث عشت لسنوات عديدة. قبل العودة إلى المنزل، قررت، على غير العادة، أن أطير فوق أرضي، مدينتي، المدينة التي

ولـدت فيهـا والتـي أحبها كثيرًا. لدي انطبـاع بأنني أتأمل آلاف السنين مـن المعانـاة والقتـال والألم، ولكـن أيضًـا آمـال وانتصـارات، وهـي منقوشـة بعمـق في تضاريس المدينة. قبـل الهبـوط، أطـل على القصبـة البيضـاء، التي كادت تختفـي تمامًـا، والتـي تمتـد اليـوم بفخـر علـى طـول الهضبـة حيـث تم بناؤهـا، وتقدم شـرفاتها للشمس. أرى الأطفـال الصغـار يركضـون ويلعبـون في أزقتهـا، أطفال جزائـر اليـوم والغـد، هـؤلاء الأطفـال، الذيـن يجنـون أخيـرًا ثمـار كفاحنا.

أرض مجهولة

حبيبة جحنين

هل لنا أرض الأحلام ؟
أم أرض الأشباح ؟
مع كل خطوة
مع كل شغب
مع كل صرخة
اليقين بأننا لسنا وحدنا
إنهم هنا معنا...
الحراس

هل حلِمتُ بالجزائر ؟
أم حلَمت بأرض الأشباح ؟
لم أكن أحلم للجزائر
أحلامي صغيرة جدا
هل هي أحلام الأشباح ؟

نمشي إلى جانبهم
يمشون بجانبنا

لم أكن أبدا أحلم للجزائر
لا تعرف أحلامي الصغيرة الحلم لهذا البلد
بكبره ولمعانه
بأشباحه
عند كل صدى خطوة
عند كل شعار
مع كل سلاح
مع كل سكين
أسمع أصواتهم
أرى الطيف المنتهك

لم أكن أبدا أحلم للجزائر
ذاكرتي الممسوحة لم تعد تعرف المسارات
لم تعد تعرف الأسماء
لم تعد تتعرّف على الوجوه

تعرف الأحجار المرصوفة والمسارات المتعرجة
الصرخات
والضحكات
والأغاني
تخمن ثقل خطواتنا المحبطة
أسمع كلمات لا تنسجم مع أحلامي
نسيج اجتماعي، هم، نحن، تعددي، متنوع، وحدة، ديمقراطية...
كلمات فاصلة

أحلم بكلمات عائقة
أحلم بكلمات لإعادة اختراعنا
بكلمات منسجمة مع حرية لطالما غُنِّيت
إنها جد وحيدة في حلمي، الحرية !

لا أحلم للجزائر
سنة بعد سنة، أطوّع كوابيسي
أحولها إلى أفعال
أريهم طريق الريح
أدعهم يشغلون العواصف

أمشي بعيدًا لأشاهد المنظر
يقدم نفسه مثل مصير محبط

هل سأجد يوما الكلمات لأقول حلمي ؟
كم هو جميل اليأس أحيانا !
يقودنا نحو كون
حدوده غير مؤكدة
فضاء ... كما في الحلم
حيث لا يمكن لأحد الوصول إلينا
هنا لم نعد نتوقع شيئا
نخترع كل شيء بأنفسنا
بما في ذلك الآمال الجديدة

هل حلمت يوما ؟
هل الحلم هو الأمل ؟
أم الاستسلام ؟
الترك والقطع والكسر
التخلي
قطع الخيط الذي يربطنا بالألم الجماعي
قطع ذكرى الموتى مجازيًا
في أحلام طفولتي

التي تشبه الكوابيس
كنت أرى العالم كبيرا
كل شيء كان يسير بسرعة
كانت هناك قطط مفترسة
الكثير من القطط
جعلوني غير مرتاحة
ثم استيقظت لأمشي في الليل
قاد القمر خطواتي
أصعد، ثم أنزل
أستمع إلى أنفاس الكائنات النائمة
أحلام طفولتي
تبعد النوم
فهمت أنها تبقيني مستيقظةً

الصباح في فسحة
بين استيقاظ ونوم ضائع
أخبر والدي بأحلامي
يستمع لي وهو يحمص الخبز
يملأ الكأس بزيت الزيتون
يقدم لي القهوة
يقول لي إنها فأل خير
كلمات حلوة لبدء حياة

لمشاهدة عالم أحلامي الكبير
لمعايشة الريبة والشكوك
بهدوء والتزام
لأجل الإيمان، ما زلت أؤمن، أن الآمال جميلة أيضًا
كالفجر بصحبة الأب.

الأبواب التي تؤدي إلى العالم الضخم كثيرة
بعضها مغلق والبعض الآخر مفتوح على مصراعيه
متصدعة أو متداعية
مخربة أو مهيبة
في بعض الأحيان مهيبة وفي حالة خراب
شهدت هذه الأبواب دخول الكثير من الأحلام
البعض أغمي عليه
وظهرت أخرى
في بعض الأحيان اتخذت طريق العودة
واجهت الكارثة والعنف والملل

كيف تحلم بالمستقبل دون الحاضر ؟
كيف تعيش الحاضر دون أن تحلم بالغد ؟
هل هناك حلم جماعي دون حلم فردي ؟
هل هناك حلم فردي دون حلم جماعي ؟

لا أعلم، فأنا لم أعد أعرف كيف أسكن أحلامي
ولم أعد أعرف كيف يبدو العالم الضخم

تتجول الكلمات وتجسد الأحلام
تقدم المسيرات اللحظة...
لإعلان وجودها للعالم
التلويح باليدين نحو السماء بفرح
من بيان إلى بيان
تتشكل في الشوارع
جغرافيا مآسي
المفقودين
المفقودين
المفقودين
أولئك الذين يبقون في انتظار
العودة ... العدالة، الحقيقة
الكلمات غير المسموعة لا تتوقف عن تمتمتها
يبدو أن السحر سينجح في النهاية
في حلمي رأيت قاربًا يأتي إلى الأرض
تحمله الشابات والرجال
الموكب يحتل الشوارع الممتلئة من قبل
كان الحلم في متناول اليد
فوق رؤوسهم

يطير القارب الرمز ويترك الأرض
يغادر فعل « كان » الشوارع
تغادر الطيور المستنقعات وتدخل المدينة
تغادر الأجسادُ الليلَ في صمت
لا عودة ممكنة !

هل يمكننا ملء الغياب بأحلامنا ؟
شاهدت مرور ألوان الحرب المتعددة
لقد وضعت الأبيض والأسود
مكان الذاكرة والكلمات الغائبة
الوقت ينفد في مواجهة كل هذا الفزع
وبطء قصصنا الحقيقية
يبسط أطياف الحلم

أمشي في صحراء ضبابية
تقودني كل خطوة إلى أرض مجهولة
أجهل إن كان هذا هو عالم الأحلام
أجهل إن كان الحلم لا يزال ممكنًا
يقول آخرون أن الحلم هو ما تبقى
عندما يضيع كل شيء
هل فقدنا كل شيء ؟

سيناريو استباقي موجهٌ للطغاة

سارة حيدر

— هل تعلمين ما هو أصعب شيء هنا ؟

— انعدام الجنس...

— لا . اعتاد جسدي على ذلك واستمد منه بعض الفلسفة ...

— ألّا تأكلي ما تريدين وألاّ تدخني حتى ترتوين ؟

— لا . أعتقد أن الطعام لا بأس به ولا أشتاق إلى السجائر كثيرا...

— إذًا فهن الحارسات النذلات اللواتي يبرحنك ضربا بدل قول صباح الخير.

— لا . لكنك اقتربت. جربي مرة أخرى !

— لا أعرف يا امرأة ! توقفي عن الهذيان ! كل شيء أسوأ هنا ! بدءا من كوننا حبيسات !

— نعم ! هذا هو الأسوأ، حبيسات !

رطوبة المساء وبعض أصوات الأحذية يتردد صداها على البلاط الساخن. هذه هي جولة ما قبل النوم : تتأكد الحارسات أننا مدفونات بهدوء قبل السماح

للمناوبة الليلية بالاستماع إلى كوابيسنا. الطقوس لا تشوبها شائبة، هي أكثر تنظيما من دورة شهرية عادية. تحاول زميلتي المحبوسة سحق بعض البعوض على جلدها الخشن. أسمع همسات في الزنازين الأخرى التي ترتفع في الأفق وتتحدى الصمت النظامي.

يبدو أن ذهبية بدأت تشعر بكهرباء المتعة تجري في جسدها تحت لسان كايسة... تفاوض جيجي، مثل كل مساء، آخر سيجارة مع السجانة التي ستأخذ 50٪ من منحتها الشهرية التي يرسلها الهلال الأحمر... طاطا عائشة تتحدث عن حكايات عشق عاشتها في شبابها لموني التي تحلم بقتل كل الرجال بالغاز... وباميلا، تلك القصيدة الأرجوانية القادمة من الهاوية، تخدش الجدران بأظافرها المحطمة، وترتل كفرها كما نداعب طفلا ميتًا...

مأوى للكلاب الضالة والمريضة ؛ محشر تتراكم فيه منكوبات هذه الحياة ؛ مقبرة مسيجة حيث لا تزال تنبض القلوب المليئة بالكراهية والحنان. هنا، نتعايش مع جنون بعضنا البعض، وأمام الجدران وأبراج المراقبة، نرقص بالقليل من الغضب المتبقي لنا. عضضنا على أبواب الناس الطيبين وسال لعابنا حتى أنهكنا وحفت أنيابنا قبل الأوان ونشفت سوائلنا. سامات ومسمومات بالفولاذ الصدئ للقضبان، بلسعة الهراوة الشرسة، بالانضباط غير الإنساني للأمور...

نحن هنا لأسباب واقعية مختلفة، لكننا جميعًا نشترك في الرائحة الخانقة للجريمة. لقد شبعنا شائنة، ورفضنا عصيان الشيطان، تلك القوة المطلقة للروح المنكوبة، آخر نبضة تمرد من قلب يحتضر.

في انتظار الترحيل، نملأ الإحصائيات ونزين الأوراق الرسمية التي تبتلع بفخر الأسماء والألقاب والإدانات. في أعقاب كل الاعتداءات، لا توجد حرية تنتظرنا. سيحمل اليوم الموالي الموت أو التعفن المبرمج للرغبة في الحياة وللحب المجرم.

***

هنا يخبرونك بعدد الخطوات التي يمكنك مشيها خارج زنزانتك، وفي أي وقت تنامين، وما هو المرض الذي يستحق العلاج... هنا، أنت مجردة من كل سلاح، حيويتك ومزاحك في زنزانة، مرعوبة من ضربة عصا قد تأتي في أي لحظة، ظهرك منحني، عيناك مسمرتان على الأرض، تعانقين الجدران وتتنفسين بصعوبة لكي لا يحدث أي شيء.

سجن الزنابق. يا لها من مفارقة! بُنِي في القرن الماضي لتخفيف الضغط على المؤسسة العقابية المركزية في المنطقة. مفرغة ضحايا الطاعون والدورة ما قبل الأخيرة للموت المبرمج، يتباهى وبفخر بروائحه القديمة،

وبمعرض مشنوقيه وبتجذره العميق في مأساة المدينة. أقيم كالقصر وسط الأنقاض، ساخر ومهيب في قدرته المتجددة على استيعاب الأرواح وسحقها، هازئ ولا مبال كفقاعة آكلة للحوم. التقيت هناك بجثث مستقبليةٍ، ومخططات أشباح: تلك النساء كن جميعًا إبداعات رومانسية، فالمأساة كانت تنضح منهن، كن متوهجات ويقطرن شؤما وغضبا، مسجونات ليس بسبب الجريمة المرتكبة ولكن لحماية بقية البشرية من طلقاتهن السامة. أمهات قتلن أطفالهن ونساء قتلن رجالهن، لصات رفيعات المستوى، سارقات، قاذفات قنابل مولوتوف، فتيات صغيرات نجسات أو مريضات، مومسات، منحطات سياسيًا، بريئات. لقد حسمت كل منهن حساباتها مع «الخارج» وليس لديهن أي ندم، أو ربما ندمن لأنهن كن يردن فعل المزيد، وتدمير المزيد، وترك المزيد من الضحايا على الرصيف... أتغذى الآن على هذه الكراهية، والقصيدة اللامتناهية، والمراثي السوداء، كجمال لا ينضب.

باميلا...

تحمل ملايين الندبات لنساء مظلومات، تحملهن كغنائم ملطخة بالدم. في لحظاتها المتوحشة، تخربش على الجدران مشاريع مجنونة ولوحات فنية مجردة حيث يمكن التعرف على بعض الرموز المفككة ووجه مرعب بدأ بالتشكل. تم القبض على باميلا كما لو أنها

حملة إبادة جرذان، انتزعت من أعماقها، وألقيت للمثول القضائي الفوري حيث حوكمت بتهمة الاستخدام غير المشروع لجسدها لأغراض تجارية، ثم رميت هنا. يومها الأول لا ينسى : دخلت كالنيزك، عينها تحيطها كدمة سوداء تترصد إمكانيات الهروب، ملابسها تتداخل مع جسدها المنهوش... « يمكنكم مناداتي بالقحبة ». هكذا صرخت في وجوهنا وهي بصدد القيام بطقوس العبور. آه ! لم أحدثكم بعد عن حفلة الاستقبال التي تنظمها لنا السجانات. إنه حفل تعتمد مكوناته على الجريمة التي أرسلتك إلى هنا : تحفة من الإبداع والدقة ! كالفرس المترددة التي كان لا بد من ترويضها بأي ثمن، تم حبس باميلا أولاً في حفرة لا يمكن أن تستوعبها إلا في وضعية ملتوية. شرحت لنا حارسة بسخرية : « هذه يوغا جديدة ». بعد أسبوعين، تصبح النهايات العصبية والعضلات وكأنها مربى منتهي الصلاحية، تصبح النفس الأكثر تمردًا صلبة مثل إسهال الرضع . كان على باميلا، مثلنا جميعًا من قبلها، أن تكون مستعدة لحياتها الجديدة كبكتيريا غير ضارة. لكن كان هذا دون احتساب الباقي، تلك التفاصيل الطفيفة التي جعلتنا، في الماضي، بشرًا متشبعات بتعويذة قديمة رضعناها من أثداء مدمية، تنفسناها في شكاوى غير مسموعة، وامتصصناها من جروح وكدمات أمهاتنا وجداتنا :

ذلك الغيظ القديم، المتبل، المعجن، المطبوخ فوق نار هادئة، المداهن، المغذي والمسمن، ثم المتدفق دون سابق إنذار فيما بدا وكأنه وباء غريب.

***

بدأ الأمر ذات صباح في خريف عام 2032. استيقظت المدينة وجدرانها مغطاة بالمنشورات والرسومات ومناشف الحيض والكتابات وبصمات الأصابع الدموية وتقارير التشريح. اعتقدوا في البداية أن الفاعل مجموعة نسوية سرية ولم يتفحصوا حتى آلافًا من كاميرات المراقبة لتحديد الجناة. لو فعلوا ذلك، لكنا قد رأينا صور نهاية العالم: صفوف كاملة تخرج في وقت واحد في الساعة 2:45 صباحًا وتنتشر بطريقة عسكرية تقريبًا عبر الطرق والشوارع والأزقة. كانوا ليسمعوا صمت الليل الذي يقطعه الإيقاع المرعب للخطوات على الأسفلت. كانوا ليدركوا سريعا الحاجة الملحة لخنق هذه الرعشة الأولى التي تأذن بنوبة مستقبلية. لكن لم يفعلوا شيئا. قاموا فقط بإعادة طلاء الجدران ومسحوا هذا التخريب من طرف مجموعة من الكلبات المريضات بالشعر.

بعد أيام قليلة، انفجرت بيوت دعارة معروفة بتوظيف القاصرات، وعُثر على اثنين من القوادين

سيئيّ السمعة معلقين في نفس الرافعة حيث تم شنق البعض منا بسبب جرائم أخلاق مختلفة. ولم تعلن أي جماعة إرهابية أو تشكيل سياسي مسؤوليتها عن هذه الأعمال. لكن وتيرتها تسارعت مع مرور الأسابيع، ولم تجد الأجهزة الأمنية من تضعه تحت أدوات التعذيب. سنوات من التدريب ضد انتفاضة « كلاسيكية » محتملة ضاعت في وجه عدو غير مرئي وصامت. رأى القانون رقم 1630 النور، عندما دُفن كل أمل في الكشف عن الجناة. وتضمن إرسال أي أنثى تجاوزت الخامسة عشرة من العمر إلى السجون الخاصة ومعسكرات التقديم. عندما غادرت المحكوم عليهن الأوائل بعد ثلاث سنوات، بدين وكأنهن قديسات مختونات، ولافقاريات مبتسمات، عيونهن مسودة بالفراغ، حركاتهن منظمة وخطواتهن صامتة.

بالنسبة إلينا، نحن اللواتي سبقنهن هنا وكنا مسلحات، على عكسهن، مسلحات على الأقل بغرور « جرائمنا »، فقد تم تجاوز عتبة ما لا يوصف. في الخارج، صارت الهجمات وأعمال التخريب نادرة. بدل القمع المكلف وغير الفعال، اختاروا نبش غريزة قديمة لدى العامة: الوشاية! « أخبرنا بأي شيء تراه أو تسمعه أو تشمه من حولك يمكن أن يكون مرتبطًا بحركة الضباع اللقيطة هذه. وبمجرد استعادة السلام، سينتهي نظام الحبس والتأديب بالنسبة إلى بناتك ». هكذا كتب

الناس، واتصلوا هاتفيا، وصوروا، وبلّغوا عن أي شخص مشبوه. لقد كانت موجة مد جامحة أيقظت أسوأ ردود الفعل.

كان علينا الرد. ولا يمكن أن يأتي الخلاص الآن إلا منا، نحن الحيوانات الجريحة التي لم يعد يخشاها أحد !

***

— أتعلمين ما الأصعب الآن ؟

— نبش قبور الميتات منا، لنقدم لهن جنازة وأغانٍ وقصائدًا وصورًا للعالم الذي سنبنيه، وحلوى وزنابق، زنابق حقيقية... ثم بناء هذا العالم اللعين أخيرا !

أنا وباميلا من بين الناجيات القليلات... كنا ثلاثة وخمسين ألفًا ومائتين وثلاثة عشر نزيلة، مقسمات بين السجن والمعسكر. قررنا إنهاء الأمر بواسطة السلاح الوحيد المتبقي لدينا: الجسد ! هذا الشيء القذر والشرير الذي أرادوا أن يدوسوا عليه؛ هذه العبوة الناسفة التي فعلوا كل شيء لنزع فتيلها، هذا الخراب الذي ظنوا أنهم سيبنون عليه عالمهم اللعين، الفضيل والصامت... لقد انفجر في وجوههم !

كان عددنا 53213، واستمر إضرابنا عن الطعام 325 يومًا وساعتين واثنتين وثلاثين دقيقة. عندما فتحت الأبواب وأطلت الشمس الأولى، غير مغطاة

بالأسلاك الشائكة وداعبت شعرنا، لم يبق منا سوى بضع عشرات...

— أتدرين كيف تكون الحياة دون سجانات وورشات خياطة وصلوات يومية ؟

— لا، لم أعد أعلم. لكن أنظري ! أنظري !

لم يكن الحشد مثل الذي تركناه بالخارج عندما دخلنا إلى هنا. كان مطمئنا، مليئا بالكراهية الرصينة نحو اللواتي تركناهن وراءنا، لقد صرن الآن حارسات وسجناء سجنهم. هؤلاء الغوغاء، الذين شاركوا منذ وقت ليس ببعيد في وشاية جماعية لإنقاذ بناتهم، انتهى بهم الأمر إلى وضع القلم سيئ السمعة والنزول إلى الشوارع. لم يكن ممكنا إطلاق النار على الجميع. لم يعد ممكنا الحبس والترحيل، فكل الأماكن أصبحت محجوزة في السجون والمعسكرات ! لم يعد بإمكاننا شراء الصمت الدولي من خلال التخفيضات على مبيعات الأرض والبشر... أولى الضحايا بيننا كن بمثابة دورات لفتح الأقفال ؛ بطوننا الفارغة ملأت الشوارع. أشعلت أعيننا التي كانت على وشك الانطفاء زجاجات المولوتوف...

هل نحن حرات الآن ؟

في حشرجة أخيرة، قرقعت مكبرات الصوت في أبراج المراقبة : «بفضل كرم رئيس الجمهورية اللامحدود، تم منح عفو رئاسي لجميع نزلاء الـ ... ».

قذيفة أولى... ثم أخرى... وابل من المقذوفات يسكت هذا الصوت الآتي من عالم آخر... هل هذه حقا النهاية ؟

— ارتحن ! عالجن أنفسكن ! سنحتاجكن بكل قواكن للمرحلة القادمة...

لا، لحسن الحظ لن ينتهي الأمر أبدا !

الحامّة 2034 : **المصير الخرافي لبطبوطة**

محمد العربي مرحوم

مرت عشرون سنة منذ آخر مرة زرت فيها بلفيدير بويون، في ديار المحصول.

كان ذلك عام 2014 وجئت لقضاء بضع ساعات في الحامة للتأمل. كنت بصدد كتابة مقال هندسة معمارية لـ/*الجزائرحية*، وهو معرض جزائري/باريسي شاركت في إنتاجه مع صديقي آنذاك، ن. ميشلان، مهندس معماري باريسي متمرد.

لقد تغيرت الأمور كثيرا في العشرين سنة الماضية.

« انتفاضة » شعبية هائلة، كما كان يحلو لـ ق. إحسان ترديده في ذلك الوقت، كنست الرئيس الذي صار عاجزا، بعد عشرين عامًا من احتكار كلي للسلطة. جهاز الطرد المركزي الذي أقامه ليكون مركزَ كل شيء طرده في النهاية. خرج ملايين الجزائريين في أوائل ربيع 2019 لمعارضة ترشيحه « غير المتوقع » لعهدة خامسة. اكتشفنا حينها الرغبة في الحلم من جديد، الرغبة في صنع مصيرنا.

أقيمت الانتخابات الرئاسية، بعد تأجيلها لعدة مرات، في ديسمبر 2019، وأفضت إلى وصول ع.ت. إلى كرسي الرئاسة. بدأ الرئيس المنتخب بهشاشة في رسم معالم جمهوريته الجديدة، وسط لامبالاة عامة من الذين يمشون أيام الجمعة. كان الأمر صعبا للغاية دون وسائل أو ريع مالي يستعمله للتعبئة. أصبح لتر المياه المعدنية *لالّة خديجة*، بحلول نهاية عام 2019، أكثر ربحية من لتر النفط. كان الاقتصاد راكدا.

إنّ الربيع الذي تلا الحراك لم يزهر. ابتليّ العالم بجائحة مدمرة. دفع الحجر الصارم الذي فرضه فيروس كوفيد19 الجزائريين إلى فحص قسري للأفكار، وإلى مساءلة تاريخهم القديم والمعاصر، واستعادة سنة المشاعر العارمة التي مرت للتو وإعادة التفكير فيها بعقلانية أكثر وبعاطفة أقل. حلت الرغبة في العمل تدريجيًا محل الإثارة المبهجة التي كان يمنحها السير في شوارع المدينة. وبفضل شباب من جميع الأطياف، تم بناء جسور فوق الشقوق الإيديولوجية التي خلّفها من سبقوهم، من أجل تحويل طاقة الحراك الهائلة إلى عمل براق لانتزاع السلطة. لذلك فإنه لم يكن أمام خط ماجينو سوى أن يفسح المجال.

أشاهد السهل وقلبي يخفق.

تدور من جديد في سماء العاصمة الرافعات المتوسطة الحجم للمؤسسة الوطنية لعتاد الأشغال العمومية، والتي أنقذها في اللحظات الأخيرة رجل أعمال خاص. خرجت لتوها من مصنع مكابح السيارات القديم في واد السمار. وكأنها أزهار عباد الشمس، تبهج بصخبها ضبابية هذا الحي الرمزي، والذي طالما عرف أحلاما وانتفاضات وخيبات أمل.

نجح الحراك خلال الانتخابات التشريعية الأخيرة في إيجاد توافق تاريخي : استطاع تحالف المستقلين المنتمين إلى الحراك الفوز بـ 188 مقعدًا في البرلمان، ثم نشأ شيء يشبه المجلس التأسيسي مباشرة من داخل قصر زيغوت نفسه. كانت هناك تسوية سياسية حقيقية تتشكل.

أعاد الوباء دور الدول إلى الواجهة. استعادت الثروة قيمتها ونبلها من خلال العمل ووفى الدستور، الذي نقحته لجنة لعرابة، بجميع وعوده. تمت إعادة توزيع السلطة بين الرئيس والبرلمان بسلاسة. لم يضطر الرئيس أبدًا للتعامل مع تحالف رئاسي، بل عرف كيف يلعب على التوازنات الهشة بين جميع الجهات الفاعلة لتوجيه الطاقات الناشئة نحو المشاركة الفعالة في الشؤون العامة. لقد قام بتبسيط جذري لشروط الترشح للأحرار. حتى أنه نجح في إعلان حل جميع الأحزاب السياسية، مما أجبرهم على الامتثال للقواعد الجديدة التي تحكم الحياة العامة.

لم يكن لها مكان في المتحف حقيقة، لكن جبهة التحرير الوطني فشلت فشلا ذريعا. حتى أنها اضطرت إلى إبرام « سلم الشجعان » مع التجمع الوطني الديمقراطي وإنشاء تشكيل جديد بين تجمع وطني أو جبهة وطنية !

انضم جزء كبير من شباب الحراك المتصلين بالأنترنت، الليبراليين والمتدينين (ثقافة لا نضالا)، إلى الشخصيات الرمزية للحراك، مما أدى إلى تقليص الأحزاب الإسلامية التي ترتدي القميص أو بدلات النصف كم، بالإضافة إلى جبهة القوى الاشتراكية التي صارت تعتبر أكثر قدما من أن تكون حزبا له مستقبل.

هُزم من جديد الطبيب الجالس على الأريكة، والذي كان انتقائيًا زيادة عن اللزوم. كان يقول إنه بحكم كونه « سابقًا لعصره »، ومحبوبًا من قبل أشباه جوني هاليداي من بني جيلي، فقد كان، مرة أخرى، متأخرا بجيل كامل، عن شباب الحراك الذين قبلوا ترويض انفصام الشخصية الذي عانوه وكوّنوا العديد من الأطياف والألوان الفكرية. أدرك هذا الجيل أن أوروبا، التي فقدت إيمانها بالمستقبل، لا يمكنها إلا أن تثقل كاهلهم باعتبار أن تخلفهم ينقذهم بطريقة غريبة.

أنا أعُدُّ. انطلق ما لا يقل عن ثلاثين مشروعًا. صارت وزارة المدينِة، التي أصبحت تسمى وزارة السيادة،

بين يدي مهندس معماري لامع، أسس واحدة من المجلات القليلة الخاصة بالهندسة المعمارية وتخطيط المدن الجزائرية قبل عشرين عامًا. رئيس الجمهورية، بعد أن وجد نفسه في شكل من أشكال التعايش مع رئيس الوزراء، انسحب من وزارة السكن التي حافظ على تحكمه فيها منذ انتخابه. وبهذا لم يعد مسؤولا «تراكميًا» بل أصبح رئيسًا كاملاً، حتى أنني لمحت فيه جانبا يشبه قليلا رؤساء الجمهورية الخامسة! أُنتخب الزميل المهندس المعماري ب.عبد الكريم، أحد مؤسسي نبني، والذي تبنى بفضل جائحة كورونا الدولانية المعتدلة بحكم الضرورة، أُنتخب كنائب، ثم تم تعيينه وزيرًا للمالية. كان مسيِّر نقاشات ممتازا منذ أيام السبت في حديقة غالان، وسمح له ذلك بتكوين رؤية أكثر عقلانية للتضامن الوطني، أكثر واقعية لفعل البناء، وأكثر مسؤولية لضرورة «العيش معًا».

لما يزدهر البنيان يزدهر كل شيء.

انتهى أمر البطاقية الوطنية، باحتسابه لأجور وحتى طموحات الطبقة الوسطى بدقة تصل حتى الرقمين بعد الفاصلة، ممَّا جعله غير قادر على الحركة والتخيل. حتى أن وزير المالية ذو الشعبية نجح في تمرير اقتراح بفارق ثلاثة أصوات يرمي إلى إلزام التعامل بالصكوك والوسائل النقدية لكل التعاملات التي تتجاوز العشرين ألف دينارًا، غضب لا مثيل له من طرف آخر معاقل

المراكز المالية، من الحميز ودبي في العلمة، الذين حاولوا عبثًا تعطيل العملية. وانتهى عهد الملايير التي تغذي السوق الموازية والتي جعلت حتى القيام بدراسات عليا تبدو فكرة تجاوزها الزمن منذ عقود. وانتهى الدفع تحت الطاولة أو التسبيقات غير اللائقة لصالح مقاولين همهم الربح السريع بفضل سياسات عامة خنقها تسيير الندرة، بدل التمتع بالبذخ الممكن. انتهت فعلا تلك الصفقة الفاسدة : السكن مقابل المواطنة ! انتهى عهد « دون فاتورة »، « دون تصريح اجتماعي »، وبرسوم خفية ! استعاد الصندوق الوطني للضمان الاجتماعي النشاط وعادت للنظام الصحي الصرامة والألوان. لم يعد الفعل الطبي مجانيًا : فقد أصبحت الآن له تكلفة بينما يضمن للمواطنين المحرومين رعاية صحية حقيقية.

لقد علق وباء كوفيد19 وسنة الحراك الوقت واليقين. انتهى عهد الريع النفطي بسبب الاستهلاك المنزلي. تغيرت النظرة إلى المجتمع والتراب الوطني. بدأنا في التعود على فكرة أن كلاهما مرتبطان ارتباطا وثيقًا. لا يمكن فصل التعطش لحياة كريمة، الذي زعزع أسس النظام، عن التعطش للمدينة، ومكانتها الهامة لأجل حل سلمي بامتياز للقضايا المجتمعية.

في أعقاب الأوهام التي جرفتها السنوات العشر السابقة، تضاءل مشروع القرن الطموح، الجزائر 2029،

إلى أن أصبح على وشك الاختفاء. فهمنا أخيرا أن الصور، مهما كانت جميلة، لا يمكن أن تبني وحدها المدينة، وأن المخطط التوجيهي للتهيئة والتعمير، الذي تم تمريره هو الآخر بشكل مستعجل في عام 2016، أصبح يعرقل الرغبة في التحرر التي انتشرت في المجتمع. تراجع العالم من حولنا وصار الناس حول العالم لا يأكلون الكرز في الشتاء. وبذلك فقد أثروا في السياسات العامة لإعادة تأهيل البشر باعتبارهم قيمة أساسية. دون أن نصل إلى حالة تقلص، كنا بالفعل في حالة نمو مفيد وكاف. أسمعنا صوتنا أخيرا، نحن الذين قاتلنا من أجل أَن نحلم بالجزائرية، وأن نفكر بالجزائرية وبالتالي أنِ نتصرف كجزائريين. عرضنا ذكاءنا بـ « الدينار » وأُخذ أخيرًا على محمل الجد. لقد صرنا أخيرًا نفكر « هنا »، كما كان يردد صديقي أستاذ الهندسة المعمارية بجامعة وهران.

نجحنا في جعل حي الحامة مجالا تجريبيا لعمران بديل خافت، لا هو حاضر بشكل شنيع ولا هو غائب ظلما. استعادت الدولة دورها التنظيمي. مثل السياسة، يجب أن يكون تخطيط المدن هو فن الممكن.

حي الحامة، الذي يعيش في حالة خمول لمدة أربعين عامًا، يمثل بحد ذاته المأزق الهيكلي لحكمنا. أدى الحقن القسري لليبرالية الجامحة في عام 1986 إلى

إغراق البلاد في إدمان الأموال السهلة، التي غالبًا ما تكون قذرة، والتي كان من الضروري التخلص منها. إنّ نظام دبر *راسك* أظهر حدوده. وفشلت جميع وصفات الاستبداد بالخوف، ثم بالمال. كان يتعيّن على الثقة في الآخر أن تحل محل الحذر منه. كان الأمل في غد بنّاء، حتى لو تطلب دموعا وعرقا، يحل محل ألم الهزيمة المعلنة.

ألقينا بعدها نظرة رقيقة بقدر ما كانت قاطعة على هذا الحي. ماذا نفعل بهذه القطعة الصناعية ؟ ماذا نبني هناك ؟ من هم السكان الذين سوف يستقرون فيها ؟ ماهي الإمكانيات التي يجب توفيرها ؟ ماهو التخطيط العمراني اللازم ؟ ذلك الذي وضعه أعظم المخططين العالميين، والذي يشبه جداول « إكسل » التي تحتوي على ألف صف وألف عمود ؟ أم ذلك الخاص بالمصرفيين، أو الآخر الأكثر منطقية وبديهية، لمختصيّ المساحات الدؤوبين، الذي نفضله ونصمم على الدفاع عنه ؟

بالإضافة إلى ذلك، فإن كوفيد19 الذي تسبب في قلب التقويم، جعل سكان العاصمة الذين خدمتهم الانتخابات البلدية الأخيرة، يرغبون في المشاركة في مستقبل أحيائهم.

شرعت لجنة لعرابة في إطلاق التحول الديمقراطي للدولة من خلال إعادة تأهيل السلطات المحلية، التي

تم القضاء عليها منذ التجربة الفاشلة في التسعينيات، وفتحَ تبسيط أساليب الحياة النقابية الطريق أمام منظمات متعددة من جميع الأطياف. فاض الغضب المثمر الذي هيج قصر زيغوت وأعطى أجنحة لأبناء حي بلوزداد.

في الانتخابات البلدية، نجحت قائمة أحرار ملتفين حول سيدة عظيمة معروفة للجميع نجاحا باهرا، وهي مديرة مدرسة سابقة في الثمانينيات وتلميذة السيدة زهور أونيسي، الوزيرة السابقة في عهد الشاذلي والطالبة السابقة في جمعية العلماء المسلمين. كان ينصحها ابن بلوزداد ووزير المالية المتحفظ ب. عبد الكريم، ويدعمها صديقي منذ أيام الشاب د .فريد، الذي درس الهندسة المعمارية ثم أصبح رائدًا في تجارة الألمنيوم على المستوى الوطني. بدأ فريد مساره خلف منضدة مخبزة والده « ملذات الشرق »، بالقرب من صالون « عمي عبد القادر » لتصفيف الشعر المسمى « لما لا ». شارك، بالخسارة تقريبا، في تشييد أول المباني المتمردة التي صَمَّمْتُها للعاصمة. وفي أعقاب عمليات الخصخصة للوزير السابق للتنقيب والإحصاء، اشترى أكبر شركة عمومية في المجال وجعلها، بعد خمسة عشر عامًا، قدوة مغاربية. نجح هؤلاء في توحيد سكان بلوزداد حول قائمة مشتركة سياسيًا تتجمع حول شعار بسيط : « بلوزداد، أرض الذاكرة، أرض الآمال ».

بدأت السيدة رئيسة البلدية، المنتخبة حديثًا، بتجميد تصريح بناء فندق ضخم ومركز تجاري ومساكن فاخرة، كانت ستبنى في موقع الشركة الوطنية للتبغ والكبريت، والتي كان قد أودعها مجمع إميرال-SNTA، كونه المزود الأول للضرائب بعد سوناطراك. حاول رئيسها التنفيذي استخدام شبكاته التقليدية للضغط على رئيسة البلدية، من أجل رفع حالة الانسداد مقابل عدد من وحدات السكن الاجتماعي في أعماق المتيجة، لكن دون جدوى. السيدة رئيسة البلدية، التي حصلت على 65٪ من أصوات بلكور، ظلت ثابتة على مواقفها.

كما أنها جمعت حولها آخر المغامرين القدامى للسينما الجزائرية، بقيادة د.بشير، مخرج فيلم *بن مهيدي* المثير للجدل ذات يوم، ليقترح على المالك العام للمبنى إقامة صرح للمواطنة. تم إنشاء مدينة للسينما، ضمت مساحات التصوير، وورشات لصناعة الديكور وحرف الخياطة، وإقامة للفن والسينما، وحتى جامعة مجانية للتعليم والتحديث مخصصة لمهن الفن والتصوير والسينما. شاركنا بكل ما أوتينا من تعاطف والتزام لدمج حِرف المدينة في المشروع. تذكرتُ بحنين أيام السعادة الخالصة التي أنتجتها مجموعة *المضرب*، والتي جمعت في عام 2016 بعض العروض الفنية والأمسيات المواضيعية، التي نُظمت في حظيرة

قديمة مهجورة، مخصصة للهدم. كان هناك عدد قليل من المهندسين المعماريين بقيادة هـ. وردية، وعدد قليل من الفنانين الشباب ومواطني الحي، والذين تمكن أكثرهم حرمانًا من جني بضعة دنانير مقابل وظائف صغيرة ومساعدة للتموقع في الحي، إذ كانت أكثر من لازمة بمجرد مغادرة شارع حسيبة بن بوعلي أو شارع محمد بلوزداد.

تم ضبط الإيقاع ونجحت رئيسة البلدية في كسب معركة الثقة. ولدت أول جامعة حرة في المدينة للفنون والتصوير والأفلام والحرف اليدوية. أنشأنا هناك، بمساعدة تطوعية من جميع المهارات الجزائرية في الداخل والخارج، ورش عمل حقيقية حول مسائل المدينة والتخطيط العمراني. هزت المناقشات الصاخبة جدران هذه المباني القديمة الصامتة. تحدثنا إلى بعضنا البعض من جديد دون توجيه الشتائم.

نجحنا في فرض فكرة أن قطع الأرض الصناعية للحي هي جزء من التراث. بمساعدة ملاك الأراضي الخواص المنظمين في جمعيات، حددنا قواعد بسيطة لاستخدام الأراضي، وأعدنا تصميم قطع الأراضي بدقة. فتحنا طرقًا للراجلين لجعل قطع الأراضي التي كانت عميقة جدا، قابلة للإنجاز من الناحية الفنية. على المسارات الحالية، قمنا بتصميم وصيانة مقاييس صادقة لا تتجاوز تسعة عشر مترا، على معابر المشاة

التي تم إنشاؤها. تخيلنا منازل صغيرة مخصصة لكبار السن في الحي. لقد عهدنا بهذه المهام، بعد استشارة كبيرة، إلى مهندسين معماريين شباب وواعدين كانوا يوقعون أول عمل لهم في الجزائر العاصمة، برعاية زملاء أكثر خبرة. توفيق، أمينة، زكي، عبدو، لمياء، أكرم، غيرهم، من خلال وضع أول مبنى لهم، رسّخوا أنفسهم في تاريخ بلادهم. أصبحوا فاعلين في مصيره بصفة كاملة.

لقد استفادوا من وجود جيرانهم، مركبي الديكور، لصنع نماذج لعرضها على سكان الحي المنظمين في مجلس استشاري للمواطنين بقيادة الرهيفة بطبوطة.

كان من المهم أن يبقى سوق *لَعْقيِبَة*، ومصلح العجلات، والإسكافي الصغير، والميكانيكي، والمحل الصغير الذي يبيع *الغرانتيتا*، البيتزا المربعة أو *الخفاف-قلب اللوز*. كان يجب أن يبقوا أمام سيل الواجهات البراقة للماركات العالمية التي بدأت تقرع أبواب مشروع وسط المدينة الجديد الذي بدأت تبدو معالمه: يجب أن تتعايش زارا مع زورو، بائع الألعاب الصينية الصغير. في غضون ذلك، قررت السيدة رئيسة البلدية إعادة تأهيل دور السينما القديمة في الحي. وجدت *Le Mondial* و*Le Camera* و*Musset* و*Roxy* بطبيعة الحال مستثمرين مهتمين بالحركية الثقافية لموقع SNTA.

حي سرفانتس، والمنازل الجميلة ذات الكهوف الرائعة في شارع داروي، وحتى المبنى الذي نشأ فيه ألبير كامو، أصبحت الآن محمية بموجب حق البلدية في الشفعة.

انتشر الحلم ليصبح تسونامي من الأمل.

بطبوطة، واسمها الحقيقي لويزة، كانت مهندسة المدينة. ولدت لأب مجهول، وقد أمضت طفولتها في ملاذ خلف فندق سوفيتيل. عاشت هناك مع شقيقيها ووالدتها نصف المكتئبة، معرضة لكل الوحوش الجنسية في المنطقة. كانت تبلغ من العمر تسع سنوات عندما قابلتها، في أغسطس 2019، بمناسبة ورشة العمل التشاركية التي أطلقتها ماجدة وأنس ونسمة، من مجموعة ADA، Ateliers d'Alger.

بنظرتها الزرقاء العاصمية وشعرها الأشقر، أصبحت جالبة الحظ لموقع البناء.أكسبتها بنيتها الممتلئة لقب بطبوطة. ربطتها مودة بأنس، مهندس معماري خارق للعادة، جاء من أعماق الدائرة الثامنة عشر في باريس، مدفوعًا بحمضه النووي ورغبته في بناء حديقة جوارية في أنقاض هذا الجزء من الحامة المدمر، ثم المنسي منذ عمليات الهدم الاستبدادية الكبرى في الثمانينيات.

بعد أن عثرت في النهاية على ملاذ سلام مع عائلة بلكور القديمة ووجدت طريق عودتها إلى المدرسة، عاشت بطبوطة حياة هادئة إلى حد ما. كونها جشعة

بالضرورة، فقد جمعت القراءات والشهادات. قادت حياتها كمهندسة معمارية للمدينة وزعيمة دؤوبة للحياة المجتمعية في الحي. سارت على أقدامها، التي أصيبت بجروح شديدة بسبب الممرات الحجرية في حي طفولتها، تلك الشوارع براحة مشعة.

في الأشهر الأخيرة، واجه المجتمع الوطني مشكلة جديدة. وصل الأطفال من الزيجات الصينية الجزائرية الأولى المختلطة سن التمدرس. لم يؤد «الغزو» الصيني للسنوات التي شهدت مشاريع عدل الأولى إلى تخصيب التربة الجيدة للجزائر العاصمة فحسب. في الوقت نفسه، عاد الجدل حول لغات التدريس إلى الواجهة. وأعيد فتح الشقوق الأيديولوجية التي كانت قد سُدت منذ فترة طويلة. جمع أحفاد مصطفى شريف والشيخ نور، النواب الحراكيّون، مدعومين بأمواج إذاعة ق. إحسان الصريحة بعد أن نزل من معقله في زموري، وجمعوا بين قصصهم الشخصية لتقديم تعديل مفيد : أن تصبح إقامة مؤسسات تعليمية حرة أمرا مقبولا.

استلهموا ذلك من المغامرة الثقافية الهائلة لجمعية العلماء المسلمين في الثلاثينيات. أسبقية اللغة الأم غيرت مؤشر الثوابت الوطنية الواضحة. عدنا إلى علمانية بصبغة جزائرية كانت سائدة في السبعينيات.

ثم رأينا ولادة مدارس متنوعة تنوع المجتمع الجزائري الغاضب والمتعدد الثقافات. يتم الآن تدريس اللغة العربية، والأمازيغية، والفرنسية، والإنجليزية، والصينية، وحتى التركية بترتيب الأسبقية الذي لا يحدده سوى أولياء التلاميذ وهيئة التدريس. الأمر متروك لهم لاقتراح امتحانات وطنية لأطفالهم تركز على الأساسيات.

ابتسمت من جديد الهوية الوطنية البيومترية الباردة. لم تعد الدولة هي الموزع الحصري للسعادة.

لم نعد موضوعًا للقانون. أصبحنا نطمح لأن نكون أخيرًا رعايا القانون.

خلال هذا الوقت، انشغل المهندسون بسعادة في تصميم المساكن « التضامنية » وصارت للمدارس الجميلة العامة والخاصة فائدة اجتماعية. لم تعد السرقة الأدبية الانتحارية التي سلبتهم شرعيتهم مناسبًة. سُمح للأزواج الشباب من الإطارات، من خلال أنظمة المساعدة الشخصية البسيطة ونظام ضرائب ذكي، بالتفكير في العيش في المدينة، وصياغة هوية جديدة يتقاسمونها مع سكان الأحياء العريقين.

أثناء البحث في الأرشيف، لاحظنا أن خرائط المترو، وبطريقة جد جزائرية، لا تتوافق في كل مكان مع توزيع الشوارع على السطح ! شكلت المخارج الناتجة

نزيفًا حقيقيًا في النسيج الحضري. تم تشكيل شوارع شاقولية على الطريقة الكتلانية نشطت التصميم المتعامد الموجود مسبقًا. كان لابد من تسميتها. أعددنا أنفسنا لهذه المرحلة الحساسة حيث يمكن أن تجتمع الأسماء والأماكن معًا للأفضل أو للأسوأ. نظمت بطبوطة، لؤلؤة بلوزداد، تحت رعاية رئيسة البلدية، منصة رقمية اقترح فيها الصغار والكبار من الحي أسماءً وحججًا منطقية. كانت النتائج مفاجئة. لم يعد التاريخ المجيد المشترك بين الجميع، دون أن يتم فك تشفيره، المرجع الوحيد الذي لا يمكن تجاوزه... جاء في مقدمة الترتيب كل من ياماها، واسمه الحقيقي حسين دهيمي، هـ. قروابي، أ. لالماس أو هـ. عاشور. أصبح الأب سكوتو وفرناند إيفيتون وحتى فيليكس كولوزي مرة أخرى أبناء للجزائر بصفة كاملة من جديد، بعد أن وضعوا في درج «الأصدقاء» منذ الاستقلال. دخل حمود بوعلام وعباسي مدني وحتى ألبير كامو إلى المراكز العشرة الأولى من أسماء الشخصيات التي أراد أهل بلوزداد تدوينها على أحجار الرصف في جمهوريتهم الجديدة.

بلوزداد، أرض الذاكرة، أرض الآمال.

غدا يوم عظيم.

سترى لويزة، لؤلؤة بلوزداد ومشجعة كرة القدم، حلم طفولتها يتحقق. سيستضيف ملعب 20 أوت الأسطوري بطولة كرة القدم المدرسية للبنات. من المحتمل أن تلعب متوسطة كاتب ياسين العلمانية المباراة النهائية ضد متوسطة بن باديس الإسلامية. لم تتوقف الألعاب النارية التي رافقت الحدث بصوت عالٍ لمدة أسبوع عن السطوع في سماء بلوزداد.

كان هذا حلمي، وحققته بطبوطة.

شهادات ونصوص

أحلام متواضعة ومجنونة[1]

أعراب إزار

سوف أتقمص دور «الأنا» وأكتب بضمير المتكلم. فهمت وأنا في خريف حياتي أن الـ «نحن» خنقني. أن «نحن» خانق. ليس لكوني منغمسا في ذاتي، أبدا، ولكن فقط لأنني موجود. لست ولا أريد أن أكون «نحن». لست سوى «أنا». سوى أنا، كائن مثل الآخرين، لكنني مفرد. منفرد. كائن موجود بنفسه ولنفسه. كائن متكامل، إن شئتم. أفكر بالطريقة التي أفكر بها وأعيش بالطريقة التي أعيش بها. لا أطلب من أحد أن يكون أو أن يعمل مثلي. لا أطلب شيئا. أود فقط أن يكون كل واحد على طبيعته. ربما بهذه الطريقة سنقدر يوما ما أن ننجو. النجاة من هذه الإزدواجية وهذا العجز العام عن رؤية الواقع، وأن نسمي أخيرا الأشياء بمسمياتها. إذًا، وعكس القول الشائع «أعوذ بالله من كلمة أنا»،

1. أبيات من قصيدة *أسمع، أسمع* للويس أراغون (*في الشعراء*).

أنا أؤكد « الأنا » وأتخلى عن هذه اللعبة، المفروضة، المنحرفة، الفاسدة والمقرفة.

ولدت في بداية حرب التحرير في قرية صغيرة في الهضاب العليا. قرية جنب سفح جبل تتكون من عدد قليل من المنازل والأكواخ وثكنتين للجيش الاستعماري ومدرسة. كان المناخ قاسيًا جدًا شتاءً وحارًا وجافًا في الصيف. هربت عائلتي المنحدرة في الأصل من منطقة القبائل من الفقر واستقرت في هذه الأرض المعدومة تقريبًا مثل منطقتها الأصلية. المدرسة والطريق المعبّد وتواضع الموارد أقنعوا والديّ أخيرًا، بعد تردد كبير، بربط مصيرهم بمصير هذه القرية. أنا أكتب « الوالدين »، في الواقع، كان قرار ذكور الأسرة : أبي وأخيه الذي هو عمي. لم يكن للنساء، وأمي وخالتي، رأي في هذا الأمر. لم يكن لديهن هذا الحق. مُتن دون أن يكسبن هذا الحق. في الحقيقة، يجب أن يقال إنهن لم تُطالبن بذلك. هذا « أمر » كان وما زال للأسف بالنسبة إلى العديد من النساء غير وارد. كن يتبعن أزواجهن دون تردد.

أصغر من قرية وأكبر من نجع

مثل العديد من الشباب في منطقتهم عند نهاية الحرب العالمية الثانية، هاجر والدي وعمي إلى فرنسا

وتعرفا على الانهيارات الأرضية والغاز المشتعل في أحشاء مناجم الفحم. وبفضل المدخرات المتراكمة، سنتيما بعد سنتيم، عامًا بعد عام، تمكنوا من شراء عقار يتكون من مسكن صغير، وطاحونة حبوب مجاورة، وأرض قاحلة.

لم يكن وصول عائلة قبائلية واستقرارها الدائم في منطقة تتحدث كلها العربية موضع رفض صريح. كما لم نكن نُستقبل بكثير من التعاطف. كانت المخاوف والهواجس حاضرة من جانب « السكان الأصليين ». في أذهانهم، كان ذلك بسبب أن هذا الجسد الذي يُنظر إليه على أنه غريب، سيهز حياتهم اليومية في أدنى سماتها البسيطة والمتكررة. والأسوأ من ذلك أن استيلاء الوافدين الجدد على مطحنة الحبوب الوحيدة في المنطقة – وبالتالي مركز القرية – كان يُنظر إليه على أنه عنصر مقلق في التوازنات الهشة في العلاقات بين العروش والعائلات. ظهر من حين لآخر عداء مسهب في البداية تجاه هذه العائلة التي تتحدث لغة أخرى، ولها عادات مختلفة، ولم تظهر نساؤها مطلقًا. ولا حتى ظلالهن. لذا فإن أي ذريعة، بما في ذلك المعارك بين الكلاب التي يملكها فلان أو فلتان، يمكن أن تؤدي إلى معارك ضارية بالعصي والهراوات ومقابض المجارف وما إلى ذلك.

استمر هذا الجو المتوتر لبضع سنوات. الوقت اللازم لكي يلين الطبع، وينظر إلى الآخر كما هو، مختلف ومع ذلك شبيه للغاية في العوز، في الحالة الاجتماعية، وقبل كل شيء، فيما يتعلق بالنظام الاستعماري الذي قمع دون تمييز كل هؤلاء «السكان الأصليين».

ولدت إذاً في هذه القرية المتهالكة المشوهة، الموحلة في الشتاء والمغبرة في الصيف، عند اندلاع حرب الاستقلال. القرية كلمة كبيرة. في الواقع كانت منطقة وسط: لا هي نجع ولا هي قرية فعلا.

كوني أول طفل في الأسرة يولد «بين العرب»، تم تسميتي بمحند أعراب، كانت لفتة حسن نية من والديّ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ورغبتهم في العيش في وئام مع جيرانهم. كتب المسجل في الحالة المدنية، وهو يعتقد بالتأكيد أنه سينتهك المقدسات إن لم ينسب الاسم الأول إلى النبي، كتب رسميًا «محمد أعراب» بدلاً من «محند أعراب»، كون محند اسمًا أمازيغيًا بجدارة. منذ ذلك الحين، حملت هذا الاسم جيدًا، لكن حتى يومنا هذا لا أعرف مدى نجاعته في خدمة استراتيجية والديّ.

حرب النمل

كصبي صغير، وبينما كانت الحرب على قدم وساق، لعبنا مع أبناء عمومتي وأطفال آخرين في

نفس عمري « ألعاب » الكبار : الحرب ! حرب النمل. في قطعة أرض شاغرة، أثرنا مشاجرات بينها. من ناحية هناك النمل « الرومي »، النمل الأحمر، المهيب، العدواني والنهم، ومن ناحية أخرى، النمل « الخاص بنا »، ما يسمى النمل « العربي »، النمل الأسود، الهزيل وغير المؤذي. كنا نذهب كفرقة منظمة، حازمة ومتحمسة، لتعبئة « الجنود » بالقوة ؛ نجلبها في علب الثقاب إلى مسارح عمليات مختارة. بما أن الطبيعة فضلته بقوة وقتالية أكبر، كان النمل الأحمر يكتسح « نملنا » في كل مرة. كخاسرين سيئين، لم نقبل الهزيمة الواضحة التي لا يمكن إنكارها. كان على شعبنا الفوز بأي ثمن. والرهان كان كفاح « كبارنا ». لذلك، وعند صرخة الحرب التي يطلقها زعيم عصابتنا، وهو ابن عم متهور، كنا نغزو الساحة وندوس بغضب النمل الرومي حتى آخر واحدة. وينتهي القتال بحماسة جماعية خادعة، بل هي في الواقع كئيبة ومرتابة. من الواضح أنها كانت تفتقد النكهة الشرسة المجردة للنصر المتوقع. كانت تفتقد نبرة الأحشاء. كان لا بد من التظاهر. وكنا نتظاهر حقًا. في هذه الوضعية تندمج الحقيقة والزيف، الحلم والواقع، المرغوب والمرفوض ويشكلون زواجًا فريدًا من نوعه.

كنا نجر أقدامنا بخجل ولكن بأحلام الانتقام والنصر، ونعود إلى المنزل على أمل أن أداء « نملنا » سيتحسن في

المرة القادمة. الحقيقة أنه في أذهان الصغيرة، كان الرهان يتجاوز معركة نمل. من سيفوز بالحرب الحقيقية، « هم » أم « نحن » ؟ لم تكن قصة قتال النمل هذه مجرد لعبة، بل كانت قبل كل شيء طريقة لإجبار القدر، باستخدام التمثيل، والاستبدال. ما بدا أنه صبياني وعبث، كان في الواقع يحضن ويرعى الحلم « المتواضع والمجنون » للوطن المتحرر أخيرا.

المدرسة، قميص موسيو مونزييه الأبيض و... « مركير دو فرانس »

استقبلت المدرسة المقابلة لبيتنا بأقسامها السبعة أطفال قريتنا وعددا من الدواوير المجاورة. كنا، في المجموع، حوالي مائة وخمسين تلميذا، من بينهم عشرين فتاة. الأخيرات في أغلبهن بنات القرية نفسها والدواوير الثلاثة أو الأربعة الأقرب. كان المطعم المدرسي، بفضل السيد مونزييه، المعلّم ومدير المدرسة في نفس الوقت، مفتوحًا لجميع التلاميذ. كان الطعام هناك جيدا، بل جيدا جدا، مقارنة بالوجبات العائلية المقتصدة جدًا. كان السيد مونزييه ينتمي إلى فئة المعلمين الجمهوريين المناهضين للعنصرية والذين أتوا إلى التعليم لأنهم يحبون حقا

المهنة. كان يعيش مع زوجته وابنيه الإثنان في شقة داخل المدرسة نفسها.

لا أعرف لماذا ظلت صورة معينة للسيد مونزييه محفورة في ذاكرتي. عندما نتذكر في نقاش عشوائي بين أبناء العمومة أو أصدقاء الطفولة ذكريات تعليمنا، يمر فيلم يدوم بضع ثوان في رأسي.

نحن في إجازة، والجو حار وحار جدًا وأرى مدير مدرستنا يقود سيارته، « جوفا 4 » سوداء، إن لم أكن مخطئًا، وذراعه اليسرى موضوعة في شكل مثلث على حافة النافذة والزجاج منخفض تماما. وتمسك اليد اليمنى بعجلة القيادة برفق. من الواضح أنه عائد من المدينة متوجهًا إلى متجر بقالة العائلة. يوقف السيارة ويخرج منها ويحيي والدي الذي جاء لمقابلته ويخبره بالبشارة: لقد نجح أخي الأكبر في اجتياز « اختبار CEP[2] ». « على الطفل مواصلة دراسته ». ويضيف: « لديه القدرة على الذهاب بعيدًا جدًا ». وبالعودة إلى الوراء قليلاً، وبينما يحاول السيد مونزييه إقناع والدي، أنظر بذهول إلى قميصه. بياضه الطاهر ونظافة طوقه يجعلانني مندهشا. لم أر قط مثل هذا البياض. في منتصف الصيف، مع هذا الغبار القوي واللزج الذي يميز الهضاب العليا، كيف يمكنك الحفاظ على قميصك أبيض تمامًا ؟ وعلى

2. شهادة التعليم الابتدائي، يعادلها امتحان السنة السادسة.

الفور، سؤال آخر يتبادر إلي : « لماذا تكون القمصان أو القندورات التي يلبسها القرويون متسخة دائما، دون أن تكون بالضرورة بيضاء ؟ » في يوم من الأيام، عندما تنتهي الحرب، سنرتدي قمصانًا رائعة ! سيكون لدينا جميعًا مياه جارية ومراحيض وكهرباء في منازلنا المعزولة !

في حالة قريتنا ومدرستها، اجتاز عدد قليل جدًا من الطلاب الامتحان النهائي للمدرسة الابتدائية. أما الذين نجحوا فيه، قبل الاستقلال، يمكن حسابهم على أصابع يد واحدة. لسوء الحظ، لم تصل أي فتاة إلى هذا الحد. بشكل عام، جعلهن الآباء والأسر يتركن المدرسة بمجرد ظهور أولى علامات البلوغ.

كان على الطلاب المحظوظين بما يكفي للنجاح في اختبار شهادة التعليم الابتدائي أن يتمكنوا من التسجيل في المتوسطة الوحيدة في المدينة، على بعد عشرة كيلومترات من القرية. تحد حقيقي يصعب على العائلات مواجهته.

في المدرسة، بدأت أفتح عيني بارتباك على الظلم الذي تعرضت له الفتيات. أجبرت أختي، التي تكبرني بسنتين، وكذلك ابنتيّ عمي، على ترك المدرسة قبل اختبار شهادة التعليم الابتدائي. تم حبسهن في المنزل على الرغم من كونهن أكثر اجتهادًا، وأكثر انتباهًا، وبالتأكيد أكثر ذكاءً منا، نحن

الذكور الصغار في العائلة. لم يكن عليك أن تكون إلهًا لقراءة مستقبلهن. تحطم خط أفقهن فجأة على عتبة الأبواب ووجدن أنفسهن محبوسات. تم رسم مسار حياتهن لقرون وقرون. الأعمال المنزلية التي لا هوادة فيها، والزواج في كثير من الأحيان قسرًا وإجبارًا، وكثير من الأطفال، زوج ووالداه يجب خدمتهم، تزويج الأبناء بدورهم، الحزن على الموتى. وأخيرًا ... انتظار الموت، شاكرات الله على كل ما فعله من أجلهن.

أدركت في وقت متأخر جدًا أن هذا المصير المشين المخصص للفتيات والنساء لم يكن حتميًا. إنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يكون مساويا لمصير مختوم مرة واحدة وإلى الأبد. فهمت، أو على الأقل دمجت الفكرة، أن ما نسميه «القدر» أو «المصير» ليس شيئًا مكتوبًا «هناك»، وليس أبدا اختراعا بارعا يسمح بالتجاهل وعدم المسؤولية. لقد فهمت أن هذا المصير هو، في نهاية المطاف، فقط نتيجة الوزن الهائل والرهيب للموتى الذي يثقل كاهل الأحياء ويسحقهم في كثير من الأحيان. وزن يُثقلهم بكل حماقاته وجنونه. في هذا المنطق، ليس القدر سوى ماض أعيد تشكيله. ماض نتمناه ونريد بعث مستقبل منه.

يُعرض علينا في كتب القراءة كتلاميذ مقتطفات نصوص لمؤلفين فرنسيين. كنت طفلاً ساذجًا ومشتتًا

بعض الشيء، لاحظت أنه في أسفل العديد من النصوص، وتحت اسم المؤلف، هناك إشارة غريبة إلى : « مركير دو فرانس ». ذات يوم، عندما اضطررنا إلى التركيز على محتوى النص، جمعت شجاعتي وصرخت للسيد : « لماذا مركير دو فرانس، سيدي ؟ » ابتسم وحاول أن يشرح ما هي دار النشر، وماذا تفعل، وما إلى ذلك. لم أقتنع بتاتا وتجرأت على السؤال : « ولماذا لا يكون "مركير الجزائر"، على سبيل المثال ؟ » ضحكٌ عامٌ في القسم. في ذلك اليوم، تأكدت حماقتي الفريدة في عيون الجميع. شعرت بالانزعاج والغيظ وأقسمت أنني عندما أكبر سأفتح دار نشر جزائرية. بعد أكثر من ثلاثين عامًا على هذه القصة، وإذ تلاشت الفكرة من ذهني تماما، تم إصدار أول كتاب من دار النشر الصغيرة، التي أنشأتها مع صديقين. لم تكن « مركير الجزائر » بالطبع، لكنها كانت دار نشر جزائرية تتعامل مع قضايا تتعلق بالجزائر. للأسف، لم تدم طويلا. كان النشر مجالا صعبا للغاية في جزائر التسعينيات.

الغد المشرق

اجتزت امتحان السنة السادسة واتبعت خطى أخي الأكبر الذي غادر إلى وهران لمواصلة دراسته بعد اجتياز

اختبار شهادة التعليم الأساسي. بالنسبة إليه، كانت توصية السيد مونزييه حاسمة. بالنسبة إليّ، كان الطريق مرسوما وكان من الطبيعي أن أمشي فيه. انضممت إلى المتوسطة في تلك المدينة الكبيرة، ولم يكن الأمر سهلا لأنني كنت مغتربا. منذ ذلك الحين، تعلمت أن أصبح وهرانيا. لأنه، كما كان يقول لاحقًا أحد أصدقائي وهو زميل سابق لي: « لا يولد المرء وهرانيا بل يصبح كذلك ». استُقبِل أخي ثم أنا من طرف عمي وعائلته الذين انتقلوا إلى هذه المدينة بعد الاستقلال مباشرة. أُطلق سراح العم للتو من السجن: تمت محاكمته وأدين في فرنسا لقيامه بهجوم، وتم العفو عنه وإطلاق سراحه بعد اتفاقيات إيفيان. بعد عودته إلى البلاد، قرر بعد بضعة أشهر من التكيف، الاستقرار في وهران، وساعده في ذلك شبكة رفاقه في الحرب والسجن، وكذلك أبناء عمومته المستقرين سلفا في هذه المدينة الكبرى غرب البلاد.

كانت الستينيات والسبعينيات، على الرغم من التقاتل بين الأشقاء في صيف عام 1962 وانقلاب عام 1965، تشكل حقبة الآمال الكبرى بالنسبة إلينا كمراهقين وشباب. كانت أعيننا مثبتة على المسار المحدد: التنمية والعدالة الاجتماعية، « الأفق 80 » الأسطوري، والذي صار الآن أفقا لا زال ينتظره الجميع. كنا نتوقع أن تدخل الجزائر من الباب الواسع في بلاط الأقوياء، بلاط العظماء. ربما لم يكتب لها

القدر ذلك، ولكن كُتِب بحبر لا يمحى على أرفف « غوسبلان[3] » الخاص بنا وبصناع قرارنا الفخورين والمثقلين بالحيوية. كنا نؤمن بذلك. بل أفضل من هذا، أردنا تصديق ذلك. فتنتنا هذه الصلة الحميمية المتمثلة في الإيمان بمستقبل أفضل وأكثر إشراقًا.

كيف لا نؤمن ؟ كان الجيل الذي تقلد السلطة هو نفسه الذي بدأ الحرب، من دون أي وسائل تقريبا، وسمح للبلاد بالحصول على الاستقلال ! نعم، كنا مستعدين لاقتحام السماء لننجح.

بُنِيت المدارس والمتوسطات والمدارس الثانوية في كل مكان وفتحت لمئات الآلاف من الأطفال والشباب. رحبت قاعات العلاج والمستوصفات في أكثر المناطق النائية بالسكان الذين لم يروا معطفًا أبيض من قبل. ربطت الطرق بين القرى والمداشر والمدن. أقيمت المصانع والمجمعات الصناعية في جميع أنحاء البلاد لدرجة أن أحد مدرسينا المتعاونين، صرخ ذات يوم وهو عائد من رحلة عبر البلاد : « أتدركون هذا ؟ صارت الجزائر في وقت صغير جدا ورشة بناء ضخمة ! »

كيف لا نؤمن عندما تُحيّى الجزائر العاصمة في كل مكان على أنها « مكة للثوار ». ممر إلزامي، محطة توقف أو ملجأ مرغوب فيه لجميع المتمردين، لكل من أراد تغيير العالم، أو أن يغير عالمه ؟

---

3. هيئة التخطيط الوطنية القوية في الاتحاد السوفياتي سابقا.

خيبة الأمل: «الأحمر والأسود»

قطعت البلاد بالطبع شوطا طويلا. وبالطبع، تم القضاء على أمراض معدية من حقبة أخرى (التيفوس، والجدري، والجرب، والسل، وما إلى ذلك). بالطبع، صار التلاميذ والطلاب في تعداد الملايين ولا يزالون كذلك. بالطبع، سُمع صوت الجزائر واُحترم. ولكن، في كثير من الأحيان أو دائمًا، يحدث أن يتم تحويل مسار النهر المهيب بلمسات صغيرة وغير محسوسة. يحدث أيضًا أن الوهم، والشعور بامتلاك الحقيقة المطلقة، وازدراء المختلف، والمناجاة... يؤدون مباشرة إلى إنكار الواقع. ألم نقم بتوزيع الأرباح عشوائيا على العمال والفلاحين الذين تعاني أعمالهم وتعاونياتهم الزراعية عجزًا هيكليًا؟! ألم نرضي أصحاب الامتياز وغيرهم من الأثرياء، تحت ستار الاستثمارات، بقروض لم تُسدد قط؟!

كل ما تم القيام به لم يتم إلا لأن ريع البترول سقانا بوفرة. وكلما سعل سوق البترول والغاز العالمي، كانت الكارثة تجتاحنا حتى اختنقنا.

نعم... بعد أقل من عشرين عامًا من التحرير، استُنفدت الطاقة الحركية للاستقلال تدريجيًا. حكمت البلاد على الطريقية التقريبية، فغرقت تدريجيًا في حالة من الجمود والركود. صارت عدم الكفاءة والطاعة

فيها فضائل، دون وجهة ودون بوصلة ومثقلة بالأخطاء المتراكمة، صارت البلاد تتقدم بخطى ثابتة نحو الهاوية.

كانت مظاهرات أكتوبر88، وضحاياها – مائتان حسب البعض، وخمسمائة حسب البعض الآخر، ناهيك عن الشباب الذين تعرضوا للتعذيب – ولكن أيضًا التغييرات السياسية التي حدثت في أعقابها نقطة تحول في حياتنا. أمل انفتاح ديمقراطي ممزوج بالخوف والألم من القفز صوب المجهول والفوضى والعنف.

في هذا الوضع الغامض والكئيب، خرجت الوحوش الكامنة لفرض واقع الهلاك. طوال عقد من الزمن، كم من عبقري قُتِل ؟ كم عدد الأبرياء الذين هلكوا، ذبحوا، قتلوا، اغتصبوا ؟ عشرات الآلاف من القتلى، إن لم نقل مئات الآلاف... سقطوا على جانب الطريق.

كيف ننسى كل هؤلاء الضحايا ؟ النسيان... أليس النسيان بالنسبة إلى الأحياء خيانة ؟

وبما أن « ما يفسده السلام هو أقل مما تخربه الحرب »[4]، فإن البلاد، خلسة في البداية، وعلانية بعد ذلك، تم تسليمها، والكلمة الشجاعة مكممة، إلى جحافل المفترسين والمتملقين. بعد أن وهبت إلى الحشرات، تطورت إلى مجموعة متنوعة من الإقطاعيات التي يرأسها حكام المقاطعات الحقيرون. وقعت الدولة ومؤسساتها المخصخصة في حالة يرثى لها.

4. جون ميلتون، شاعر انجليزي في القرن السابع عشر.

كان جيلي، مهما كانت توجهات أفراده، يؤمن بالثورة بشكل أو بآخر. حاول الجميع، بطريقتهم الخاصة، تقديم ما في وسعهم.

كانت خيبة الأمل كاملة. لم تكن هناك بدائل أخرى غير « الثلاث عبارات » التي قدمت نفسها: مواصلة القتال، أو الانحناء والخنوع، أو مغادرة البلاد.

أما أنا، وبكل وعي، مثل كثيرين آخرين، فقد اخترت معسكري. ولست نادما على ذلك. اخترت « الأسرة التي تتقدم »، معسكر الحرية.

إذًا ما هي أحلامي اليوم ؟

الأحلام اللصوص

الأحلام، كما نعلم، لا تأتي أبدًا دون سابق إنذار، أو فجأة. هذه ليست إبداعات من العدم. مثل قصيدة أو لحن موسيقي أو أغنية، من أجل أن تولد وتوجد، يجب أن تتحقق شروط معينة، خاصة تلك الاجتماعية والثقافية.

إذًا، ما هي أحلامي ؟ هي كالآتي...

أحلم بهالة من الضوء.

بوفرة الخبز والمروج الواسعة.

أحلم بأحواش مختلطة وضحك أنثوي.

أحلم ببلد تكون فيه الحرية حقيقة، والحقيقة حرة. أحلم ببلد تتساوى فيه المرأة مع الرجل ويتساوى فيه الرجل مع المرأة. أحلم بـ « عيش مشترك » مبني بذكاء يجمع ويشمل ويحمي ويؤمِّن الجميع. أحلم بدولة جمهورية ديمقراطية واجتماعية تعيد الثقة وشهية للحياة.

ربما نسير ببطء شديد تجاه هذا. حتما سيأتي ذلك اليوم. وكما أعلنت الشاعرة والمجاهدة آنا غريكي بأنفاسها القوية من أعماق زنزانتها: « المستقبل قادم غدا، المستقبل قادم قريبا ».

كتب لويس أراغون، عن الحق في الحلم، في ديوانه نيمفي:

« أتفهم أن يجرم الحلم
فأنا لا أحلم سوى بما منع عني
سألتمس البراءة ويعجبني أن أخطأ
في عيني العقل الحلم لص ».

إذًا، عاش الحلم!

علينا إنقاذ المستقبل[5]

صلاح باديس

وَعَدَ مؤسّسو الولايات المتحدة الأمريكية مواطنيهم بالرفاهية والحرية وبالسّعي وراء السعادة وجعلوا لهذه الوعود اسمًا : الحُلم الأمريكي... أمّا الحزب الشيوعي فوعد مواطنيه في جمهوريات الاتحاد السوفيتي، رغم انغلاق المعسكر الشرقي على نفسه والقمع، بأنّهم سيصنعون « الإنسان الجديد » الذي يحرّر شعوب العالم ويجعلها تسير نحو الأمية وتُعمِّرُ الفضاء... الفرنسيون رسموا لأنفسهم، بعد قطع رأس الملك، ثلاثة خطوط : المساواة والحرية والتآخي... هنالك بُلدانٌ أخرى تبني حياة وحُلمَ مواطنيها على دفع حدود الحضارة نحو الصحراء أو نحو البحر أو على حساب الغابات... هنالك دائما حُلمٌ ما يدفع النّاس إلى تحمّل الحياة، قد يتحوّل إلى كابوس، قد تستغلّه الإشهارات التجارية، قد يفكّكه الأدباء والمفكّرون... المهم أنّه يوجد حلمٌ ما.

---

5. كُتِب هذا النّص مباشرة بالعربية.

فكّرت في كل هذا وأنا أقود سيارتي في الطريق السريع، بالجزائر العاصمة. شاهدتُ لافتة إشهارية ضخمة تُصوّر سماء غروبٍ، وفكّرت في أنني أشاهد لأول مرة صورة سماء في إشهار جزائري. أصلا، يكاد يكون وجود اللافتات الإشهارية مُنعدما في الطرقات السريعة الجزائرية. وهذا عكس أغلب بلدان العالم، من أمريكا إلى مصر، مرورا بألمانيا وتونس. هل لأنّنا لا نملك الكثير لنروِّجُ له في هذه البلاد ؟

الشيء الغريب في لافتة الإشهار تلك، هو أنني انتبهت إلى أنّه لا يوجد إشهار في الجزائر – تقريبا – يستعمل صور سماء وأفق مفتوح، أو باخرة تشقُّ مياه البحر، في الترويج لعروض ومنتجات ما. لماذا ؟ لا أدري صراحة، ربما لأننا من أسوء الشعوب في مجال الترويج، أو ربما فقط لأننا – منتجين ومستهلكين – لا نرى الأفق ؟

للأفق أهمية كبيرة في الإشهارات، في العالم أجمع. فأنت تفتح أمام المستهلك الذي يجلس على أريكته أمام التلفزيون، أو خلف مقوده على الطريق، نافذة يُطلّ منها على وعدٍ بحياةٍ مغرية أكثر من حياته. أنتَ تعِدُ المُستهلِك بالنجاح، بالسعادة، بالسفر والاكتشاف... أنت تداعب فيه غرائزه البشرية الأولى، تقول له إنّ الإنسان لا يجب أن يبقى حبيس بيته. بالعكس، غامر واكتشف واستهلك، امنحنا أموالك وسنمنحك سرّ

الحياة، سنساعدك على الإمساك بالسعادة. وطبعا، تتكرّر الوعود مع كل منتج وخدمة تُقدّم للمُستهلِك. وهكذا... جنّة الرأسمالية الموعودة. لكن، كما نعلم جميعنا، لا وجود للرأسمالية في الجزائر.

ماذا يوجد إذن ؟

في الحقيقة، فالجزائر بلادٌ تعيش ونظرها وعقلها موجّه نحو الماضي. وعندما أقول بلاد، فأنا أعني جميع مكوناتها، من نظام وقوى اجتماعية وقبل كل هذا : الخيال الجماعي نفسه موجّه نحو الماضي. الغدُ، والمستقبل عموما، ليس مُدرجًا في أذهان الجزائريين. رغم أنّ شعوبا أخرى تعتبرُ المستقبل منجم ذهبٍ تتصارع لتتقاسم خيراته، فنجدُ السياسيين والبورصات والبنوك والثوّار والمعارضين والعلماء والكتّاب يحجزون أماكنهم في هذا المستقبل الموعود. كلٌّ حسب رؤيته وتصوّره. لكن هنا يوجد الماضي، الذي هو عكس الأفق، عكس المستقبل. تقريبا، لم تتوجّه إرادة هذه البلاد وحلمها وطموحها إلى لحظة أعلى من لحظة ثورة التحرير، ولم ينجح شيء في هزّها عن جمودها هذا سوى حرب أهلية دامية دامَت عشر سنوات. عُدنا بعدها للتعلّق الدائم بـ « ماضينا

المجيد » مع الكثير من الجروح والرضوض التي خلّفها تقاتلنا على عتبة الألفية الثالثة.

المشكلة ليس في الماضي (passé) نفسه بل في الماضوية (passéisme). التعلّق في زمن مُعين وترك المستقبل للمجهول والمكتوب وكل التصوّرات الروحانية. هكذا تتحرّك كل الدولة – التي تملك وسائل تحديث المجتمع – في حركة واحدة ووحيدة : نحو الماضي.

وما علاقة الماضي بالإشهارات ؟ العلاقة عكسية، الماضي هو عكس الإشهار التجاري الذي يعِدُك بالغد، بالمستقبل، ولا يلجأ إلى الماضي سوى لمداعبة حنين ما أو لاستعماله كديكور. الإشهار هو الأفق المفتوح، الدعوة للمغامرة، هو الطائرة التي تعبر السماء مثل شهاب وهو الطريق الممتد أمام سيارة جميلة وغالية لكن يمكنك شراءها، وهو المنزل الجميل المطلّ على الحقول والبحار والذي سيُقرضك البنك لشرائه. هو المرأة الفاتنة، نصف العارية، هو الرجل الذي يُشبه جسده التماثيل اليونانية. الإشهار هو الرغبة. هل نرى كل هذا في إشهارات الجزائر البائسة ؟ الإشهارات التي تصوّر نرى فيها عائلات بائسة تردّد أغانٍ تافهة، في ديكورات باهتة وداخلية كأنّ لا وجود للشارع ... نحن لا نصوّر شوارعنا في الإشهارات فما بالك بأن نقدّم وعودًا للمستهلك بالسفر لأماكِن بعيدة ! كيف يحلم المشاهد مع إشهارات مماثلة ؟

وهنا نعود قليلا نحو الحلم، هل يوجد شيء اسمه « الحلم الجزائري » ؟ يمكن أن نقول إنّ البلاد عرفت فترة أحلام قوية عند تأسيسها. البلاد نفسها صاغها الحلم بالتحرّر والاستقلال، وتقرير الشعب (الذي كان حُلما) لمصيره. مكّة الثوار كانوا يقولون. البلاد نفسها شكّلت قدوة وحلما لبلدان كثيرة... لكنها أيضا تحوّلت إلى كابوس لنفس هذه الدول. الأزمات الاقتصادية ثم الحرب الأهلية ثم حُكم رجل مريض ومشلول لمدة عشرين عاما. الجزائر تنتقل، وبسرعة البرق من الحلم إلى الكابوس. لكن، لا علينا، دعونا نبتعد قليلا عن هذا التاريخ الجماعي، والحلم والكابوس الجماعي، ونقترب قليلا من حلم الفرد، الواحد، المواطن، الجزائري. ما هو حلمه ؟ ماذا يبيعه أصحاب المال والقرار في هذه البلاد ؟

بقليل من التفكير، سنجدُ أن من يحكم البلاد، مهما تغيّر اسمه، يبيع للمواطن الماضي وليس المستقبل. والماضي لا أحلام فيه... ولا حياة. من يحكم البلاد يتعامل مع الإنسان في الجزائر كنصف مواطن، أو كرُبع مواطن، والدولة وصيّة عليه. تمنحه كل ما ترى هي أنّه يحتاجه، وتصرفُ ريع البترول والغاز كي تبقى الأمور على حالها : يركض وراء الشهرية، ويملك سيارة ماروتي – أو رونو سامبول – ويسكن في سكنات « عدل » ويحمد الله على الكفاف والعفاف. بعد أن

عزف الجزائري « نغمة الرشاش لحنًا »، ووعدَ بتحرير الشعوب المظلومة، صار معزولا عن العالم بل ومعزولا عن مواطنيه في المدن البعيدة. ولا يتقاتل سوى في تفاصيل أمور تاريخية تافهة غالبا، يتصوّر أنّها أساسية لتعويض العقد الاجتماعي الغائب.

ولكن، هل من الضروري أن يكون لنا حلم جزائري ؟ لا، ليس ضروريا طبعا، وربما من الأحسن أننا لا نملك لافتات إشهارية ضخمة تحجب عنّا الأفق. لكن ماذا فعلنا بهذا الأفق الحقيقي ؟ هذا هو السؤال. فالجزائري، كل شيء مبرمج له حتى لا يسافر. بدءًا ببنوك الدولة التي تمنحه 100 أورو في السنة كمصروف سفر، ويضطر لشراء العملة الصعبة من السوق السوداء، لو وافقت السفارات على منحه تأشيرة. ولا ننسى أن الجزائري، لا يحصل على تأشيرة سوى بعد ملفّات ثقيلة، تطلبها السفارات، تفوق نظيراتها التي تطلبها الإدارة الجزائرية. هذا في الخارج، أما في الداخل، فكل شيء مُبرمج حتى لا يتحرّك الجزائري من مدينته... التي بدورها لا تملك أفقًا مفتوحا.

ربما من الصعب أن يوجد حلم جزائري يسعى وراء اكتشاف الآفاق ودفع الحدود والسفر والمغامرة، فقط لأنّ تاريخنا لم يكن توسّعيًا وحدودنا لم نرسمها نحن ولسنا – عموما – شعبًا مهاجرا، ما عدا الرحلات الانتحارية للحرّاقة آخر عشرين عامًا، في محاولتهم

لعبور الأفق البحري... لكن من المهم أن تكون لنا فرضية ما عن تصوّرنا للسعادة، سعادة لا تُشارك في صنعها الإشهارات فقط، بل تصورنا عن أنفسنا كأفراد وكجماعة. من المهم أن تملك هذه الفرضية، حتى تتصارع معها، تُصدّقها تارة وتُكذبّها تارة أخرى. كما تتصارع كل الشعوب مع فرضية وجود أحلامها من عدمها. ولصنع هذه الفرضية – الحلم علينا امتلاك خيال جديد.

الخيال الجديد وحده من يُمكن أن يجعل البلاد تُغيّر وجهتها من الماضي نحو المستقبل. الخيال الجديد وحده من يُمكنه إنقاذ المستقبل من التلاشي. وعكس الماضوية، الخيال الجديد لا يلغي وجود المستقبل. الغد سيكون مُدرجًا على قائمة مواعيد الجزائريين. الخيال الجديد مُهم اليوم، لأنّ مساحة الفعل تقلّصت من قبل أزمة وباء كورونا. صحيح أن الحراك استمر بعد انتخابات 12 ديسمبر 2019، لكنّه عجز عن أن تكون حلوله عملية أكثر. الحراك الذي انطلق في 22 فيفري جاء ليُوَسِّع ميدان المُمكن، بعد أن ظلّت ضيّقة لعقود، بل ومنعدمة في أغلب الأحيان.

والطبقات الشعبية هي من وسَّعت ميدان المُمكن، وفتحت باب الفعل، بجماهيرها العريضة الخارجة من المساجد والملاعب. أهازيج الألتراس وأغانيهم هي من فتحت الشارع، وهي من جعلت الفعل مُمكنًا. واستمرّ

الحراك لأزيد من سنة، ولكن الخيال عازَنا أكثر من مرّة. كان الجزائريون يتحرّكون بإحداثيات قديمة، بأفكار قديمة أخذت صبغةً جديدة انهارت سريعًا. لم نشاهد باحثين يقومون بعملهم لشرح كيف خرج الجزائريون، وكيف جاءت السلمية وكيف عملت هذه الانتفاضة الشعبية مثل خلية نحل... لم نشاهد الصحافة تقوم بعملها في نقل قصص الناس، اكتفت فقط بصفحات أولى « جريئة » تساند المظاهرات أو تشتمها أو تتجاهلها... رؤيتنا كجماعة لأنفسنا، لم تتغيّر كثيرا، وبقيت الأغلبية ترى أنّ على « الشعب » أن يتوحّد حتى يهزم « الأشرار »... كانت مساحة الفعل مفتوحة أمامنا ولكننا تحرّكنا بعقلية الماضي، من دون خيال جديد...

وما العمل الآن ؟

علينا إنقاذ المستقبل. لأن التصارع حول ما مضى طيلة الوقت، يُنسينا الحاضر والمستقبل. الوقوع في فخّ سياسات الهوية العقيمة ليس حلاّ. الرغبة المجنونة في إصلاح الماضي أو إظهار « الحقيقة » الواحدة والوحيدة لن يفضي بنا إلى شيء. حتى لا نترك أمر المستقبل في يد نظام متهالك، يُقامر بالإنسان والطبيعة، ويراهن على الغاز الصخري وهو مستعدٌ لبيع آخر

قطرة من خيرات هذه الأرض حتى يبقى في مكانه. علينا إنقاذ المستقبل حتى نرى الثورة كصيرورة مستمرّة وليس كلحظة مقطوعة الصِلة بالماضي والمستقبل. علينا إنقاذ المستقبل حتى نصنع بالأفق شيئا مفيدًا... حتى لا يصير المستقبل أرضًا مجهولة بالنسبة إلينا... حتى لا يصير المستقبل صورة في لافتة إشهارية على جانب طريق سريع.

أغورا

أكسيل تيشرفاتين

الكلمة هي ركيزة الحضارات: تسمح للأفراد بالتواصل، وتمنح انفتاحا على الأنا والآخر.

سنتحرك بين كلمات الأمل والعقل واليقين، كلمات حلم صنعته؛ سنكتشف أناسا جمعتهم الكلمة حول الأفكار، تساؤلات وأشياء لازال فهمها مُعلّقا. بكل أريحية، وفي غياب كل عقبة، يلهمنا التواصل ويعطي للحلم سبب وجوده.

الحديث الآتي يدور في بلاتو تلفزيوني لوسيلة إعلامية مستقلة، حول *مايدة*، أو في مقهى شعبي تحت بيتي في الحومة، أو في النّاحية الثانية من المدينة التي نظن أننا فقدناها بسبب تجبر من يحكموننا، ولكنها عرفت كيف تنجو من عذابات ماض ليس بالبعيد؛ هذا الحوار بين الجزائر يضع في المشهد جيلا يسمع دون أن يقاطع، يسمع لبعضه بانتباه ويتفاعل دون تردد ليبني مع الوقت مستقبلا سرقه الماضي.

ضوء هادئ يُنير وجوه المتدخلين، ضوء يدفع للتفكير، يكشفُ ما يبدو لي شيئا عظيما. كل واحد يرتاح في قعدته، على الأرض، على زربية أو كرسي، الجميع يتنفس الفرح، يُشعّ بسعادة تجاذب أطراف الحديث، كلهن وكلهم تحرّكهم الحاجة لفهم هذا الآخر الذي رفضوه طويلا، متجاوزين خلافاتهم، معترفين باختلافاتهم في خفة لقاء واعد، في جدّية نقاش حماسي، في ضرورة حديث هادئ. هؤلاء الأشخاص سيتركون أنفسهم يقتنعون – ربما – بأفكار وطموحات تحملها أصوات اللواتي والذين كانوا يعتبرونهم أعداء وهربوا منهم بسبب الخوف، أو الجهل أو النكران. في حلمي على كل حال، يمّحي الخوف من الآخر، يتم تجاوز الجهل ويضيع النكران في القبول.

تتكلم تلميذة ثانوي وتكسر الصمت :

التلميذة : نضالي. أقول نضالي ولكنه نضالنا جميعا، كلكن وكلكم معنيون ؛ من دونكم، لن أستطيع التقدم. أعرف أنه من الصعب الطلب من الآباء ألا ينجبوا أبناء مرة أخرى، بعد أن عرفوا فرحة الولادة. أعرف أيضا أن رمي المهملات دون القلق على ما تحتويه هو أكثر بساطة من فرزها. ولكن هل نحن مستعدون للتضحية بكل شيء، فقط لأننا كسالى ولا نريد أن نتنظم ؟ لن

أرى عالم أحلامي، إذا ما كان الفقير جائعا، أو إذا كان الرأي مقيّدا ؛ لن أستطيع إغلاق عيني إذا ما ظلّ طفل ما خارج المدرسة، إذا ما مُنِع رجل من الصلاة، وإذا أسيئت معاملة امرأة.

رجل عجوز : من سنّة الحياة أن يرسم الوقت الذي يمضي على الصخر مرور السنوات ؛ ويفعل نفس الشيء على الفرد الذي، عبر الوقت، تعلّم الدروس ؛ التجاعيد على جلده ليست فقط انعكاس الفصول، أو تباطؤ تجدّد الخلايا. تشهد تجاعيدي على تجارب عشتها، ونقلتها إلى الجيل الذي يليني، ولكن الحقيقة هي أن هذه التجارب ليست مُسلّمات حقيقة مطلقة وإعادة المُساءلة دائما ضرورية. ذات يوم قلت لحفيدي : « لا تُصفّر داخل البيت ! » ، سألني : « لماذا ؟ » قلت بصوت عال : « لأن البيت قد يفرغ ». فأجابني : « جدي، لا معنى لهذا الكلام ! » ذلك اليوم، فهمت أن هذا الجيل يستطيع الإشارة بالتحديد لخلو معنى بعض التقاليد، بعض التعاليم، والتي ما عاد عليها أن توجد اليوم ؛ لذلك أجد أن التلميذة الشابة على حق عندما تقول : علينا إطفاء أضواء منازلنا عندما نستطيع ، وإلا فستنطفئ هذه الأضواء من تلقاء نفسها إلى الأبد.

المؤمن : إيماني هو خيار حر، وهذا الخيار الحر هو الحق في اعتناق دين معين أم لا. أعيش روحانيتي بشكل عمودي وأجد نفسي بعد أن بحثت عنها ؛ أجد السلام لأن لا شيء فُرِضَ عليّ. أتمنى رؤية التنوع الذي هو في قلب تعاليم ديانتي. تعلّقي بالإنسانية وخلاصها هو بمثابة الأمر البديهي، وأنا مقتنع في أعماقي بأن على صلاتي أن تكون منح الحق لمن هو أمامي في أن يكون نفسه، بأن يشعر أنه يتواءم مع معتقداته ويستمتع بحياته، وأن يبحث عن احتياجاته وأجوبة لأسئلته التي قد أشاركه فيها أيضا.

الديمقراطي : من الواضح اليوم أنه، وفي أكثر من مكان في العالم، لا تعكس الديمقراطيات صوت الشعب بالضرورة ؛ يشهد غياب العامل والحرفي عن عملية اتخاذ القرار على هذا، دون نسيان الحضور الدائم لوسائل الإعلام، تأثير اللوبيات، كل هذا يسيء للعبة الديمقراطية ويعيد مساءلة ركائزها. لا أريد الجلوس في برلمان يتجاهلك، أنت الرجل النظيف الرافض للرشوة والذي يظن أن العقاب الإلهي سيحل على كل من يسرق. لا أستطيع التصويت على قانون يُجرّم لبس الحجاب ويحدّ من حرية المواطنات، لن أقبل أبدا أن يُضطهد أحدهم بسبب إيمانه أو يحاكم بسبب معتقداته.

النسوية : رأيت رجالا يمتنعون عن ذرف دمعة خوفا من الأحكام، رأيت رجلا يعرق ويُجرحُ وينحني ظهره ويعاني عملا مُتعبا ويقضي ليلته بلا عشاء خائفا من العودة إلى البيت بيدين فارغتين ويواجه زوجته التي تنتظره في بيتهم الذي لا يتجاوز 45 م^2، متشككا في أنه لا يليق بالدور الذي وضعه فيه المجتمع . فهمت يومها أن نضالي نسوي لكنه ليس أنثوي فقط، بل هو نضال للمساواة أولا والتحرر خاصة، وأنه كاشف لكل التنميط الذي نتعرض له نحن النساء، والرجال أيضا. فهمت أنه، في التقاليد، يوجد الجيد والسيء ؛ أعلم أن هنالك أولويات، وأن الفتاة على حق بيد أنّنا لو واصلنا على هذا النحو، لن يتمكن أحدنا من رؤية الشمس تشرق، وسنموت بتهافتنا على تلويث كل شيء.

المناضل الثقافي : إنسان على الأرض، مواطن كامل، يمكنني أن أكون عربيا أو أمازيغيا، أتكلم لغتي أو لغتك، هل يوجد مشكل ؟ إذا كنا نفهم بعضنا البعض سنتحاور، وإذا تحاورنا سنتعلم، وإذا تعلمنا سنتقدم. شخصيا، سأدافع عن أمازيغيتي حتى آخر نفس، ولكن أبدا لن أدافع عنها ضد ثقافة الآخرين. لست جاهلا أن ثقافتي حدّت من حريتكم سيداتي، ولكن اعلمن أن التقاليد التي أدافع عنها ليست ضد فكرة التغيير. لا

تستثني فكرة إعطاء الحق للنساء كي يملكن عصمتهن، يملكن السلطة على أجسادهن وعلى مصيرهن في المجتمع، وفي كل المجالات التي استُثنين منها.

الديمقراطي: علينا كسر الحلقة المفرغة التي تدور فيها الديمقراطية، والتي لا ترتكز سوى على الاقتراع العام: علينا إعادة النظر في هذا المبدأ. وقد أثبتت هذه الركيزة فشلها أكثر من مرة. هذه الطريقة الواهمة التي لا تمنح للمواطنين الحق في التقرير سوى خلال الانتخابات، ولا تضمن أي رقابة على الحكام، تجعل من الكتل الشعبية المصدر المقدس لكل السلطات ولكن دون أن تتمكن هذه الجموع من أن تمارس أي سلطة.

أنفتح على القيم العالمية، أنفتح على العولمة، ولكني أوافق المحافظ الذي يخشى على خصوصياتنا: تكييف قيم الجمهورية ورَكَائزِهَا للسياقات المحلية أكثر من ضروري، وبالمناسبة علَينا الإقرار بأن إعادة إنتاج النمط الغربي لم ينجح يوما.

المؤمن: التماهي مع المشرق ليس الحل، المناضل الثقافي على حق: لنا خصوصياتنا، تقاليدنا، لنا تاريخنا ومعيشتنا التي لا تشبه غيرنا.

الشاعر : الكلمة رقة. الجملة أبلغ من ألف مداعبة.
من النقاش، تولد المساءلة. حلم التحرر.

***

هذا الحلم يضع في المشهد نقاشا جزائريا – نقاش لا غنى عنه، وغالبا ما يوصف بأنه مستحيل، بسبب التخندقات الأيديولوجية التي قسمت البلاد. هذا الحلم لي : أولا أن أكون مواطنا وأتبنى كل النضالات. هذا الحوار يرشد أولا إلى الطريق التي علينا كأمة أن نجتازها، وتكشف عن وعي الأفراد، واهتمامهم بالآخر. هذا الحلم لي، كلماته هي انعكاس أفكاري وما أراه ضروريا في جزائر–ي.

في حلمي، تصلنا كلمة المتدين المهتم بسلامة إيمانه ولكنه واعٍ بأن كل شخص له طريقه في هذا العالم. نسمع ديمقراطيًا يتساءل، وهو منفتح على النقد الذاتي. نسمع تلميذة ثانوي مهتمة بالرهانات المجتمعية والبيئية ونُنصت لنسوية تناضل ضد أبوية الفكر الرجعي، حتى تخلق، وفي حالة من الاستعجال، وعيا مُدركا لكل الصعوبات التي يفرضهما عليهما السياق المحلي والواقع المجتمعي. ويتكلم رجل عجوز بحكمة قديمة لكنه يعترف بأنه قد لا تكون صالحة لكل زمان. ويقرأ علينا الشاعر، بين تدخلين، أبياتا تهدئ من كل تشاحن

قد يردُ على الحوار ؛ في الأخير، يُكلّمنا المناضل الثقافي عن أَفكاره وما يجب فعله وما يمكن أن ينتظر حتى يستمر النقاش ويزدهر.

***

الشاعر : وطن. هوية مستعادة.
جزائر واعية باختلافاتها.

المؤمن : اللائكية هي الكلمة التي تشفي الجراح ؛ تسمح بالدفاع عن عقيدتي بإبعادها عن التلاعبات السياسوية، تضمن الحريات الفردية وتسمح بتطبيق المواطنة وأهتم أنا بممارسة إيماني.

النسوية : في بعض الأحيان، أخطأت الحكم على النساء بسبب نقص انخراطهن، دائما ما انتظرت أكثر من جهتهن ؛ ولكن كل واحدة منهن كانت لها أسبابها، ربما كان ليكون كافيا أن أريهن بأن نضالي لا يذهب سدى وأنّني أعتقد جازمة أن النسوية لا تجعل الجميع متشابه بالضرورة.

رجل عجوز : ذات يوم، فهمت أن شريكتي كانت حزينة، وأنّني المسؤول عن حياتها الصعبة. كم من

مرة تمنيت لها عيد ميلاد سعيد ؟ كم من مرة شكرتها لوجودها إلى جانبي ؟ كم من مرة أعطيتها الحب الذي تستحقه ؟ الجواب هو : ولا مرة. ولن أسامح نفسي على هذا أبدا.

المناضل الثقافي : تحت راية ثقافتي، هنالك أناس لطالما وجدوا أنفسهم في دين معين، ترجموا الصلوات حتى تصير متاحة للأميين. أدعم هذه الجماعات، لهم الحق في الصلاة وبناء أماكن العبادة. وسأساعدهم دوما.

التلميذة : كل التعددية التي يمكن للعالم أن يمنحها هي غنى ؛ في كل تصور للعالم، هنالك عناصر أساسية لبناء المجتمع ؛ من دون هذه العناصر، لن نستطيع الالتحاق بقضية ما. وانطلاقا من هذا، لا أطمح لجعل العالم أكثر تعقيدا، بل أريد منح الأجيال القادمة الحق في أن يوجدوا.

***

حلمي هو نقاش وتبادل للأفكار، حلمي هو تقبل الآخر ورأيه، يمنح حلمي الأولوية ضرورة البناء مع بعض رغم الاختلافات، حلمي هو أن تنتصر الحريات، الحقوق والتسامح. يتكئ حلمي على قيم الإنسانية،

وكذا على تاريخ الجزائر ومستقبلها. حلمي أيضا هو ألا يقتصر الحلم على جزء من المجتمع فقط، أن يمتد إلى أقصى نقطة ممكنة، ليشمل غير المتعلم والمتعلم، وأن تختفي هذه التصنيفات. أحلم أيضا بصحافة حرة، حيث يعبر كل شخص من دون خوف، أحلم بعدالة نزيهة تحمي الحريات.

حلمي مصنوع من الحب والمشاركة ومن انشغال مُواطني، من مستقبل مبني على قواعد صلبة ودائمة. حلمي، مثلما رأيتم، ناقص. هذا النقاش، هذا التبادل، يبدآن الآن ومهمتنا الآن هي أن نكتب البقية في الحقيقة، مهمتنا نحن جيل اليوم، الواعي بالصعوبات، أن نذهب بنفس الخطوة نحو جزائر أحلامنا.

لا يعكس هذا النص سوى جزء من تفكيري ونقدي للحقل السياسي الملغوم، ولكنني في مرحلة أتمنى فيها أن يتم نقده من طرف كل من ذُكروا أعلاه؛ هكذا، أكون قد سمحت لهم بتشارك فضاء هذا النص، حتى يستقر شبه عيش مشترك في جزائرنا.

الحُلم ببحث علمي مُختلف

خديجة بوسعيد

يسود في حياة كل باحث/ة، أو عالم/ة بشكل عام، شعار هو بمثابة القانون: لا تتكلم، أبدا، أو تحاجج في موضوع دون أن تدعمه بحجج، وتنطلق من تجربتك. هذا النص هو ثمرة تجربة لا هي جيدة ولا سيئة ولكنها مُعاشة، بطريقة موضوعية في بعض الأحيان، وشخصية في أحيان أخرى، ولكنها حقيقية.

لنقتل البحث على نار هادئة: العالم/ة ت/يختنق، أو كيف نُمارس «البحث المكتبي».

وددتُ لو أقص عليكم قصة مطبخ مليء بالمأكولات الشهية، ويمكننا وصفه بـ «العلمي»، في العالم النبيل للمعرفة. ولكن، الذي سأحدثكم عنه هنا يُمارسُ في دائرة شبه جامعية تُصارع فيها الرداءة العبث.

وكما هو الحال في كل المطابخ، هنالك الشيف أو « رئيس الطباخين » ومساعدو الشيف، والطباخون الخدم ؛ ولسوء حظي، انتميتُ طويلا إلى الطباخين الخدم، أولئك الذين يُسمون في لغة العلوم باسم « باحث مشارك ».

كغرباء على المهنة، ربما لا يعني لكم هذا الاسم شيئا... *معليش* ! وهو اسم ينطبق على شخص بالكاد بدأ مسيرته العلمية، « نُص نُص » كما نقول : غالبا، يتعلق الأمر بباحث/ ة شاب/ ة اقترب/ ت من نيل شهادة الدكتوراه، لكن ليس بعد ؛ ويطلبُ منه رؤساؤه الكثير من العمل، ويجعلونه يفهم أنه لازال لم يتعلم شيئا، وفي نفس الوقت يستغلونه، كائن هجين... نعم، فلنُسميه هكذا.

الخادمة التي كُنت لم تكن تريد أن تصير شيف (*بعيد الشّر*)، بعيدا عن هذا : كنت أريد أن أتعلم وأفهم وأدرك واقع المادة والحياة والمجتمع وكل أداة دراسة يُمكن أن تدفع للتفكير والتنافس والمصلحة الفردية أو الجمعية.

إلا أنه، وللقيام بهذا، يجب البحث عن المكونات الجيدة والقيام بمحاولات والتمكن من التقنيات، أملا في الحصول على طبق مُرض. ولهذا الهدف، على الخادم (الباحث المشارك) أن يُوثّق وينهل من كل منابع المعرفة التي قد يجدها. عليه أن يُموقع نفسه بين الشبكات،

حتى يتبادل ويتحاور مع خدم آخرين ويعرف كيف تسير الأمور في مطابخ العالم الأخرى. عليه أيضا أن ينزل إلى الميدان كي يُلاحظ، يتحاور ويجمع المعلومات حتى يُشبع نهمه – طبعا – ولكن ليملأ مِزوَدَه خاصة، ويُهيكل مراحل وصفته المستقبلية. في الأثناء، وعلى قدر الإمكان، على الخادم ألا يكون مُقيّدا على المستوى المؤسسي، عليه أن ينعم بشيء من الحرية، حتى يستطيع العمل بكل انفتاح، لأن العمل يتطلب طاقة خلّاقة وسلِسة، وكلاهما ضروريتان لممارسة فن الطبخ (أي، البحث العلمي).

ولكن ماذا سيحدث إذا ما كان الخادم مسجونا، لا يستطيع اختيار المكونات، ولا تذوق خلطات جديدة واختبارها، كيف سيكتشف أطباقا بأذواق مختلفة ويَصْنَعُهَا؟ في هذه الحالة، هو محكوم بأن يكون مُنفذًا وفقط، وهو منذورٌ للتكرار، جالسا، طيلة اليوم، أمام خطة عمله، مُعيدا التفكير من دون ملل في الخلطات المفضلة للشيف. هكذا، وفي وضعه كخادم، يحمل «الباحث المشارك» اسمه بامتياز (بالفرنسية attaché من attaché de recherches والتي تعني «مربوط»)، فهو ليس سوى شخصا مربوطا إلى مكتبه أكثر منه إلى البحث نفسه، الذي يُمكّنه من الفهم والتراكم ثم النقل... هنا، يتبخّر البحث، بينما يُطبَخُ «المربوط إلى مكتبه» في طنجرة ضغط، حتى الاختناق، مُنفّذا رغبات *الشيفان*.

آه، نعم، *الشيفان*... فلنتكلم عنهم قليلا، يا لها من كلمة، *الشيفان* !

هنالك من يُشيعون في فريقهم الامتياز وروح المبادرة، ولكن الذين أتكلم عنهم هنا هم أولئك الذين يُقدَمون كعلماء ولكنهم يدافعون فقط عن مصالحهم الخاصة. ولكن من لا يفكر في مصلحته الخاصة ؟ تقولون لي... الجميع ! في الأثناء، وفي دائرة البحث « الذي يسمى » علميا، على الامتياز واحترام الأخلاقيات والروح النقدية والتبادل المثمر أن يكونوا خط السير الوحيد، وعلى هذه القيم أن تكون همّ كل عالمـ / ة وباحثـ / ة بالإضافة إلى أولئك الذين يملكون سلطة تنظيم البحث وإعطائه سُمكا وعمقا لا نمتلكهما، في بلادنا، حتى لحظة كتابة هذه السطور.

مثلما هو الحال في المطبخ، يمكننا الاختيار بين إمّا تثمين كفاءات كل شخص، منحازين بكل ثقة نحو مطبخ ذي سمعة عالية،وإمّا أن ننحاز إلى الرداءة والقيادة الفاشلة، كي نطبخ كل يوم نفس الطبق، ونُقدّم للزبائن نفس الأكل منذ عقود، نسخّنه كل مرة... إلى ما لا نهاية.

« فلنقتل البحث على نار هادئة »، هذا هو شعار هؤلاء *الشيفان*، مُفسحين كل المجال للخُطب اللاذعة والنقاشات التافهة والحوارات العقيمة... يخنق هؤلاء *الشيفان* البحث العلمي، يحصرون البحث في نشاط

داخلي ومُروّض لا يُنتج شيئا، أو القليل. ويا ويل الطبّاخ الصغير الذي يحيدُ عن الصّف، ولا يخضع للقواعد، ويحلم بديمقراطية البحث، يا ويل « المربوط إلى مكتبه » الذي يعطي رأيه حول طريقة أخرى للعمل ! لا، هو مربوط، مُقيّد إلى مكتبه الخشبي، يركّز عينيه طيلة اليوم على حاسوبه، مكتفيا بالبحث الافتراضي، بعيدا عن الميدان والحقيقة... بعيدا عن الحياة الحقيقية ببساطة.

حين تُصادَرُ سلطة العلم الكلّي، يسود التعسّف كل شيء.

آي... آي... حذاري، إنه ساخن، إنه حارق ! ولكن لا أحد ينتبه للدخان، أو يراه الجميع ولكن يفضّلون تجاهله... صعبة هي معارضة النظام، والسباحة ضد التيار، ورفض الانصياع لمّا ينصاع الجميع.

يجب أن نصرخ « قف »، أعيدوا للبحث العلمي حريته... ولكن كيف، تسألونني ؟

قبل كل شيء اغضبوا. « اغضبوا » قال ستيفان هيسل، لأن الغضب يفتح طُرق الرجاء.

نعم، فلنغضب بسبب حال البحث العلمي ؛ ممارسة البحث ليس مهنة عادية، بل هي من صفّ الأخلاق والذكاء والفضيلة، قيمٌ لا تُناقش ولا تتجزأ عن عمل

الباحث. حان الوقت الذي نُعيد فيه لقيصر ما لقيصر، فلنُعِد البحث للباحثين الحقيقيين، ولنتخلّص من الفقر الذي أصاب روحنا.

أحلم بعالم لا نخدم فيه بحثا مُحددا سلفا، يمنع حتى حرية التفكير عبره ولأجله، أحلم أن نجتهد في بحث يهتم بالمصلحة العامة، بالمهن الأخرى والفئات المجتمعية الأخرى. يجب تحرير الفكر، ومنع الرقابة على الأفكار، أخذ الوقت اللازم والإنصات لكل صوت قد يبدو أنّه قيمة كامنة في انتظار أن تتطور، هذه هي مفاتيح بحث علمي يأخذ مكانه في بلد يحتاجه. سواء كان في مجال العلوم الصلبة أو الطبيعية، على البحث أن يُمارس بنفس إغراء « صندوق العجب » يجعل طلبة المستقبل والأساتذة والجميع يحلمون، لأنه سيكون قادرا على اختراق عوالم مجهولة وجديدة، مثل الذهاب نحو اكتشاف قصص جديدة، وجغرافيا رائعة وأزمنة لم تخطر على البال من قبل. على البحث أن يكون دعوة لمن يـ/ تريد أن يجد نفسه / تجد نفسها / ويجد / تجد الآخرين، سواء على مستوى الجماد أو الحي.

لكنني أريد العودة بالتحديد إلى مجالي، البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، والذي رغم أنه أقل حظا ولكن بإمكانه أن يصير أحد مفاتيح تطور بلدنا. العلوم الإنسانية والاجتماعية، والتي تمسّ الإنسان مباشرة، هي المجال المثالي لتصور آخر ممكن، وانطلاقا مما هو موجود.

هذا لا يمكنه أن يتحقق دون التوجه نحو بحث أساسي، مرتكز على فكر نقدي يُبنى على المدى الطويل، وهو ضروري للخيال، لليقظة وحب الاكتشاف، للثراء عبر قراءة وإعادة قراءة كل أنواع النصوص، سواء كانت علمية أم أدبية أم فنية، والتي ستُخرج – عبر مليون طيف – مجهود الإنسانية.

إذا ما كنا مسلحين بهذا البحث الأساسي، والذي هو قاعدة لكل معرفة، سيأتي الوقت لبحث تطبيقي، يذهب نحو اكتشاف مجتمعه وإعادة اكتشافه، هذا الأخير الذي نريد فهمه في تعدديته وكُليّته... اختراع تنظيم أفقي للبحث كي يكون التشابك بين كل من البحث التطبيقي والأساسي ضروريا لخدمة المجتمع على كل المستويات. وعند تعميم هذا البحث القابل للتعميم، سيصير أداة للانفتاح على طرق أخرى للتفكير والفعل، وعلى أمل حكم مجتمعي متجدد لأجل « الجيد والجميل ». وكل ما اقتربنا من « البحث » المثالي في جمالياته الأكثر نقاء، سنصل إلى الكمال في الممارسة والتطبيق.

عندما يُعوَّضُ الصحفي بالآلة، من يكتب أصلا على آلة...

شوقي عماري

أين هم، من كانوا، أين كانوا وأين سيذهبون،
من هم وماذا صاروا ؟
يتعلق الأمر بوسائل الإعلام، عن موضوع وحده الإعلام
يعرف ماذا يقول...

البارحة

قديما في عصر تيراكس، تيباكس وتيلكس، عندما كانت الأخلاقيات في قلب النقاش، كانت الصحافة سلطة مضادة حقيقية، يمكنها أن توقف الحروب عبر النص والصورة، الخبر والتحليل، الواقع والرأي. تكشف فضائحا في أعلى مستوى في الدولة، وتدفع المرتشين وغير الشرفاء، سواء كانوا رؤساء أو وزراء، للاستقالة، هذه المهنة الشريفة كانت مثلها مثل محامي القضايا العادلة، الطبيب الإنساني أو رجل الدين المُحسن.

هنا وُلدت العديد من الحيوات المهنية، ومنهم حياتي أنا، شاب متعطش للحقيقة والعدالة ويريد دخول رقعة شطرنج التاريخ دافعا بالتقدم الإنساني حدّ التحرّر التام للإنسان، ليس بمعنى حريته في شراء حاسوب خاص أو « ماك »، برغر كينغ أو « بيغ ماك »، بل حرٌ في اختيار مسؤوليه والحكومة التي تناسبه، أن يكون له وزن على مصير بلده وبشكل عام على مصير الكوكب.

وبما أن حرية الصحافة لا تتبع بالضرورة مسارا خطيا، ولا تسير من الأقل حرية إلى الأكثر بتطور طبيعي، ستتبع مسار انفتاح وانغلاق مرتبط بفترات تحدّدها صراعات السلطة والأيديولوجيا المهيمنة أو – وهذا أكبر المشاكل – الشبكات والعلاقات التي ينسجها مدراء الجرائد الذين لم يعودوا صحفيين بقدر ما هم مُسيّرو تأثير أغنياء، هدفهم إيجاد مكان في البازار الضخم الذي صارت فيه وسائل الإعلام أكثر عددا من دور النشر.

ماذا حدث ؟ تماما مثلما كل رؤساء الدول هم أصلا رجال أعمال، لم يحِد مدراء الجرائد عن القاعدة بل واستبقوها، بعضهم يستعمل الآخرين، والآخرون يعملون على تغذية الأولين، وكلاهما حليفان ؛ المعلومة سلعة... مثل أي سلعة. هكذا يمكن للسوق أن يبتلع البقّال الصغير ويصير الغلاف أهم من المضمون، وكذلك المردود من الإعلانات وجذب الدعم من الدولة، كل هذا يصير أهم من أعداد القراء أو مصداقية

الخط التحريري. هل يدعو هذا الواقع للاكتئاب ؟ نعم، ولكن مادام الإعلام يُنبِئنا عن حال الإعلام، داخل نفس الحلقة، فعلى هذا أن يجعلنا سعداء.

اليوم

فلندع خلفنا الدكتاتوريات القديمة تخيط أفواه المؤسسات الإعلامية، لأن الرقابة وسّعت مكانا للرقابة الذاتية في الديمقراطيات الحديثة، للضغط السرّي للزعماء والسلطات الذي يسعى كي يتفادى الجميع هذا الموضوع أو ذاك، وسّعت أيضا فُسحة للمساندة التامة للإيديولوجيا الحالية، والاصطفاف مع القوى السائدة في الكوكب. لأنّه، وفي عصر الاحتباس الحراري، جفّ الحبر وتغيّرت الهيئة ؛ يبيع الإعلام، أو على الأقل ذلك الذي يوصف بـ « السائد »، الحروب ويعمل بشكل واضح للشركات متعددة الجنسيات والمليارديرات المتشعبين في شبكات الدولة والجماعات السياسية المتحالفة مع السلطة.

الأمر الذي جعل الناس لا يرون الصحفيين اليوم سوى كمرتزقة من دون إيمان ولا قانون، بعيدا عن المثال القديم لمن يقيم العدل ويفضح الفاسدين، مثلهم مثل أي بائع متجول يبيع مكنسة كهربائية من دون خزان ولا

كابل، ومن دون فعالية، أو كمن يبيع عُلبا ضخمة يمكن أن نضع فيها علبا أخرى... وهذه هي وظيفتها الوحيدة. ما دفع القراء لاختراع هذا التحوير في الاسم «ميرديا» بدل «ميديا»، اسم غير مُشرّف لمهنة تنازلت عن دورها. وما عدا بعض الاستثناءات، صار الصحفي اليوم موظفا عند شركة أو محترف معلومة، يبيع - خارج الحروب المخصّصة في الغالب لكاتبي الافتتاحيات - النوادر والحوادث والتسلية، أو قصصا فردية وملاحم إنسانية رديئة، دون أن يخطو أبدا في الميدان الذي كان له، ودون أن يسهر على طريقة سير العالم. والواقع أن الصحافة ساءت صورتها وما عاد النّاس يفكّرون في ممارستها، سوى للحصول على أجر جيّد - وحتى هذا لم يعد مضمونا - وللعشاء جنب الكبار، حتى لو كان ذلك بأكل سندويتش رخيص في الشارع.

كل ما أسلفت ذكره لا يعطي أي حق للجزائر في حجب المواقع الإلكترونية والذي صار يشكل رقما قياسيا، ولا الصحفيين الذين يقبعون في السجن رغم وجود قوانين تمنع هذا. هل نحن أكثر حرية أم أقل؟ هل نحن أحرار أقل مقارنة بقبل عشر سنوات أو ثلاثون سنة، أحرار أكثر مقارنة بعشرين أو أربعين سنة؛ وكما قلنا، المسار ليس خطّيا، بل يخضع لمنطق توسّع وتقلّص.

يرى النظام، المهووس بأن يغرق في الفوضى مثل ليبيا الجارة أو سوريا البعيدة، بعين حذرة الصحفي

عدو الاستقرار، وسيُعاقب كل نقد لم يُغلّف بشكل جيّد ويوقف مباشرة صاحبه أو الوسيلة التي تبثّه، حسب الحالة. وبسبب واهٍ كهذا، لن يعاقب الصحفي فقط بل الناشط أيضا، بعد رسم حدود تشمله أيضا مادام نشر المعلومات الحسّاسة مرتبطًا بنوع من النشاط.

لم يفهم النظام شيئا، لأنه يتصوّر أن القارئ لا يبحث سوى عن المعلومة، وهذه الأخيرة موجودة في كل مكان حتى في آخر فُرن تسخين موصول بالأنترنت. ومثل كل كائن بشري غير جامد، يريد القارئ أيضا التحليل، والرأي والرؤية، الاستشراف والفكاهة، الذكاء والتسلية، و- في النسخ الورقية - الكلمات المتقاطعة، وهو ما لم تنجح الأنترنت بعد في تقديمه، على فكرة.

في حين تعد الحكومة بسن قوانين تمنح إطارا رسميا وقانونيا لكل وسائل الإعلام الإلكترونية والتي تشكل عددا كبيرا (لأن تشكيلها أسهل ومنعها أصعب) يحدث العكس تماما: يتعرّض عدد كبير من المواقع الإلكترونية للحجب، بسبب رأي، معلومة غير مؤكدة أو تحليل لا يُعجب. إشارة سيئة، هيئة الرقابة على تكنولوجيا الإعلام والاتصال (TIC) صارت تحت رقابة عسكرية بعد أن ظلّت لسنوات تابعة لوزارة العدل.

في جوان 2019، وبينما كانت الجزائر تواصل حراكها بسلمية، وقّع الرئيس بالنيابة بن صالح، رئيس

مجلس الأمة سابقا، مرسوما يحوّل هذه الهيئة لتصير تحت مظلة الجيش وأجهزة مخابراته. النتيجة ؟ استعمال الـ VPN (الشبكات الافتراضية الخاصة)، مدفوعة أم مجانية، لتفادي هذا الحجب، وهو الأمر الذي لا يُصلح شيئا تقريبا، لا للرقيب ولا للقارئ. هل يدعو الأمر للاكتئاب ؟ أكيد، ولكن من وجهة نظر البعض، في بلد محاط بالفوضى، الاستقرار والأمن أعلى من الحرية والحقيقة، وعلى كل حال، فالأنترنت هو اختراع للجيش الأمريكي.

مباراة متعادلة، الكرة في الوسط، الحكم مبيوع ولكن الجمهور لم يترك الملعب.

غدا

نستطيع بل وعلينا أن نحلم بجزائر حرّة للتعبير ولكن الصعوبة مزدوجة. أولا، إقناع النظام بأن الصحافة الحرة تنفع الجميع وأن مطلقي الصافرات لا غنى عنهم للدفاع عن مصالح الوطن، وهذا في حدّ ذاته صعب، لأن اللوبيات وجماعة المصالح نافذون في مفاصل الدولة ولا يريدون الشفافية والتهييج. ثاني صعوبة، خط الأفق. لأن المثال أمامنا. لو تطورت الصحافة حسب القاعدة التاريخية، فهذا سيوصلنا إلى

مثال الإعلام في الغرب، أكثر الأماكن حرية حسب سمعتها، وحيث يشتري الأغنياء وسائل الإعلام وكذا الشركات العابرة للقارات والبنوك وكل جماعات « القوة الناعمة ». ليس هذا ما نتمنّاه للجزائر، بكل حسن نية ولكن بعقلانية أيضا ؛ على وسيلة الإعلام أن تكون مملوكة لأهل المهنة، وينصّ القانون الجزائري على هذا : أن تكون الجرائد ملكا للصحفيين أو على الأقل لأهل المهنة، حتى لو وُجِدت حالات استثناء كثيرة. لنلتزم بهذه القاعدة، ولنحلم بما هو أحسن ولندفع بالفكرة حتى طريق اللاعودة، حتى تتحقق.

لكن تبقى مشكلة النموذج الاقتصادي : كيف تعيش جريدة يملكها الصحفيون ؟ كيف تُدفع أجورهم ؟ هل تكون على الأنترنت أم ورقية ؟ تفتح صفحاتها للإشهار ؟ بخدمة اشتراك، مجتمع قراء مساهمين أم بتمويل تشاركي ؟ المشكل معقّد لأن المعلومة، اليوم، مجانية : صحافة بلا صحفيين وبسيلٍ معلومات لا ينقطع، يمكن للقارئ وهو في المرحاضِ أن يستعلم على هاتفه الذكي الذي يتصفحه إلى ما لا نهاية، فيرى آخر حوت في المحيط ويشتم اليابانيين بالإنجليزية، أو يتابع خطاب الصباح لنجم موسيقي. لما لا ؟ فقد فتحت « أوبرة[6] » العالم على كل مجال كان يشترط رخصة، صعبة المنال أم غالية، حتى تصير سائق تاكسي. هل

6. من شركة « أوبر ».

يمكن تشبيه المعلومة بوسائل النقل ؟ نعم. حيث أنه من اللامعلومة إلى المعلومة، هناك رحلة، يتكفّل الإعلام بتأطيرها. هل يدعو هذا للاكتئاب ؟ نعم، ولكن الجرائد المجانية لا تقوم بأي تحقيق أو روبورتاج، هذه الأنواع الصحفية التي يعتبرونها غالية التكاليف، في حين تكتفي هذه الوسائل بحاسوب موصول بالأنترنت ومتدربين أو ثلاثة. لازال المستقبل أمام وسائل الإعلام المدفوعة، نظريا. إذا ما ابتعدت عن المثال السيئ المذكور أعلاه.

بعد غد

الوقت نهر بوتيرة بيانات لا تنقطع وتذهب في نفس الاتجاه، نهر... عندما يكون فيه ماء. عصر شبكات التواصل الاجتماعي، حيث يمكن للرأي أن يكون معلومة، رؤية للروح، حقيقة، وحيث كون الفيديو بألف صورة ثابتة، وتكون هذه الأخيرة ألف كلمة مع الـ 1000x1000 كنتيجة، ثوّر هذا العصر العلاقات بين الميديا والوسائط، بين الصحف والقرّاء، بين الحكّام والمحكومين وبين المحكومين فيما بينهم. ولم ينته الأمر، وصول الذكاء الاصطناعي المتزاوج بالحواسيب الكمية *وبالبلوك تشين* أو باكتشاف الكواكب غير الشمسية المسكونة ولكن من دون صحفيين، كل هذا سيُغيّر علاقة

كل إنسان بالمعلومة وبالحقيقة، وعلاقة الفرد بالكون. قبل وقت طويل، وحدهم من يعرفون القراءة كان لديهم إمكانية الوصول إلى المعلومة، على الأقل تلك التي لا رقابة عليها. اليوم، الكل يعرف القراءة لكنهم يفضّلون الصور، كأن هناك عودة تامة لطفولة البشرية عبر طريق خاطف: من الكتابة الهيروغليفية إلى يوتيوب مباشرة. لما لا؟ العالم يتغير و، منطقيا، من يسكنونه أيضا.

في النهاية، هل نحن في حاجة إلى المعلومة؟ ما عدا الأحوال الجوّية، الأسبقية اليوم للتسلية: لذلك نجد أن فيديو قط يُلاكم كلبا لأنه سرق حذاءه الـ «نايكي» تصل إلى مليون مشاهدة أكثر من فيديو محاكمة تواطؤ بين التصنيع العسكري والحكومات؛ وهذا النص الذي بين أيديكم في هذا الوقت بالذات عن كيف يحلم صحفي الجزائر سيراه عدد قليل من الناس: نعم، يمكننا اليوم «رؤية» مقال وليس قراءته. لهذا وبالتقريب، وعبر تباعد اجتماعي متزايد لأسباب صحية، تركتُ بالتدريج المعلومة الصافية، مازجا بين المزاح، الحدث، الأفكار القوية، محاولات التحليل والتفكير في الحِراكات الحالية، سواء كانت سياسية، جيوسياسية أم مجتمعية.

لهذا، سأكون ربما من أواخر من سيتم استبدالهم بآلة لأن هذه الأخيرة – رغم كل ذكائها – عندها مشكلة في أخذ خطوتين إلى الوراء والتفكير في الأمور، عندها

مُشكل – خاصة – مع خفّة الدم والتي هي في النهاية أكثر الأسلحة فتكا لكل شخص يأخذ خطوتين للتفكير، وهي أيضا آخر مهرب للإنسانية. هل هذا مشجع ؟ نعم، وخاصة بالنسبة إليّ. إنها إيديولوجيا الحاضر التي تسود، في حين يتناقص عدد الميديا ومتابعيها الذين يفكرون في الصالح العام.

بـأي جزائر تحلم بشرى وفريـال وزكـي ؟

بشرى فريدي، فريـال كسـاي، زكي كسـاي

بشرى، ولدت قبل 1962 بقليل

منـذ أن طُـرح عليّ هـذا السـؤال قبـل بضعـة أسـابيع ، وأنـا أحـاول أن أحـلـم، أن أرى جزائـرَ أحلامـي ! لا أستطيع الحصول على رؤية عنها في المستقبل. كل مرة أحـاول اسـتحضار جزائـر أحلامـي، أعـود إلى الماضـي. أعتقـد أنني أسـتعيد جزائـر الثمانينيـات، جزائر شـبابي، تلـك التـي حاولـت مغادرتهـا لكنني عـدت إليهـا سـريعا. تلـك التـي شـعرت أن لي فيهـا مكانـاً. حـذار، فأنـا لا أحـن إلى ذلـك الزمـن، ولا أرغـب بشـكل خـاص في العـودة إلى الجزائر الأمة في تلك السنوات، لأنها لم تكن الدولة التـي يسـتحقها شـعبها. إن الرابط مع جزائـر الثمانينيات الذي أتحدث عنه غير موضوعي أبدا. خلال تلك الفترة كنـت أبنـي حياتـي. وكانـت الأحـلام تمـلأ قلبـي. كان الطريـق وعـرا، وفي الوقـت نفسـه مليئًـا بالوعـود. مسـار الحيـاة الـذي أردت أن أسـلكه لم يكـن مرسـوما. كان

يجب اكتشافه باغتنام فرصة، أو لقاء ... خلال هذه السنوات كانت السعادة والأحلام في متناول يدي.

لقد عشت حياة أشعر بالرضا عنها لأنني تمكنت من تحقيق نفسي بالكامل. لدرجة أنني أشعر أحيانًا بالاستعداد للموت بهدوء ورضا. أحيانًا أقول لنفسي : « ماذا تريدين أكثر من ذلك ؟ حصلت على كل شيء ! » لكن من بإمكانه الإدعاء أنه لم يتبق له شيء ليكتشفه في الحياة ؟

أتيحت لي الفرصة للقيام بخياراتي الخاصة واتخاذ قراراتي بحُرية. لم أكن لأحلم بالحياة التي عشتها. لم أكن أتخيلها أبدًا حتى اختبرتها. أن تكون سعيدًا لا يعني أن يكون الأمر سهلاً، ولكن الشعور بالقدرة على اختراق الحواجز. لقد مررت بأوقات صعبة للغاية. ومع ذلك، أشعر حتى الآن أنني حققت ما يتسنى لي إنجازه تمامًا. لقد تمكنت من التوفيق بين حياة أسرية سعيدة ومليئة بالحب وغير مملة أبدًا مع حياة مهنية متنوعة وملهمة دائمًا. لم تقدم لي على طبق. وقد تحقق ذلك من خلال الجهد والمثابرة وعدم الندم على المخاطرة. على العكس من ذلك، كلما زادت المخاطر التي واجهتها، كلما كانت حياتي أكثر اكتمالا وإثارة. جزائر ذلك الوقت هي التي ما زلت أحلم بها.

خلال الثمانينيات، كنا نمضي فصول الصيف في التخييم على الشواطئ البرية الخلابة. استلقينا تحت

الشمس بالبيكيني وغطسنا في المياه الشفافة التي تخترقها أشعة الشمس، جنبًا إلى جنب مع الأسماك التي لا يكاد وجودنا في مملكتها يثير فضولها. مشينا في تيكجدة وتالاغيلاف، بتنا في العراء في طاسيلي، وتنزهنا في مرافئ السلام في جوف الغابات، على بعد عشرين دقيقة من الجزائر العاصمة. هذه هي أرض الجزائر التي أريد أن أجدها. هي موجودة ! كل ما تحتاجه هو استخراجها من تحت أكوام الأكياس البلاستيكية وجميع أنواع القمامة التي تخفيها وتشوهها اليوم. يمكننا أن نجدها إذا فتحنا العديد من الأبواب التي تغلقها السلطات واحدة تلو الأخرى.

في ذلك الوقت، كنا كجزائريين نتقاسم نفس التطلعات لأننا كنا نتقاسم نفس القيم، لم تكن الفوارق تقلقنا. خلال التسعينيات، تسلل الشك وعدم الثقة بيننا. لم يعد يمكننا التعرف على ذوينا، لقد أصبحنا غرباء عن بعضنا البعض. ثم توقفنا عن الخروج إلى الأماكن العامة، انطوينا على أنفسنا مع الأقرب والأكثر موثوقية، وأصبحنا أقل عددًا وصار التعارف بيننا أصعب.

أود أن أرى نفسي مرة أخرى في أعين أبناء وطني. هذا ما اكتشفناه مع الحراك : أناس مثلنا ما زالوا موجودين، أناس يمكننا أن نصرخ معهم في انسجام رغبتنا في استعادة جزائرنا، حلمنا بجزائر حرة وحديثة. عدنا كل يوم جمعة لنجد، بهذه المسيرات،

حماسة هذا الحلم الهائل الذي احتضن كل جزائري أينما كان، ومهما كانت اللغة التي يتحدث بها، ومهما كان الدين الذي يمارسه. نعم، كنا ندرك أنه لا تزال هناك اختلافات سنواجه صعوبة كبيرة في قبولها والتغلب عليها، لكننا كنا نؤمن بقوة إرادتنا للخروج من حالة الركود. وصادف أن هذا الإيمان اهتز بسبب حادثة أو تصريح بقي، في كل مرة، أضعف من الرغبة في الالتقاء والبناء معًا.

جاءت جائحة كوفيد19 وحُرمنا من هذه الجولة التي أعادت تشكيلنا لتجعلنا متشابهين. نحن الآن محبوسون، كل منا في منزله. حتى الأقرب، والأكثر موثوقية، يجب تجنبهم، لأنهم أصبحوا خطرين رغم أنفسهم، ودون أن يكونوا قادرين على معرفة ذلك أو التحقق منه... كيف تحلم عندما لم يعد بإمكانك التنفس؟ كممت أفواهنا حرفيا ومجازيا؟

يمكنني فقط إعطاء شكل لبضع أجزاء من الأحلام. أستطيع أن أرى بعض التغييرات التي من شأنها أن ترضيني: على سبيل المثال المكانة التي نعطيها لأكثر الناس حرمانًا. في سياق عملي، قابلت عددًا كبيرًا جدًا من النساء العازبات والنساء اللواتي لديهن أطفال، محكوم عليهن بالخروج إلى الشوارع لأن الدولة لم توفر السكن لهذه الشريحة من المجتمع. نادرًا ما تكون إحداهن من بين الحاصلين على سكن اجتماعي. يُعرض

على القليل منهن الالتحاق بالملاجئ حيث يتم وضعهن ويحكم عليهن بانتظار المساعدة، لأنهن لا يملكن الحق في الخروج وبالتالي العمل. يُقترح دون خجل على اللواتي لديهن أطفال وضعهن في مراكز للكبار وأطفالهن في مراكز للأطفال ! بدل هذا الخيار البذيء تخترن البقاء في الشارع.

أحلم بجزائر حيث يمكن للمواطنين ذوي الدخل المنخفض، رجالاً ونساءً دون تمييز، الحصول على سكن لائق مقابل إيجارات تتناسب مع إمكانياتهم. لأنه لا يوجد تدهور أسوأ من عدم اكتساب منزل. أحلم بجزائر لا يتأخر فيها أحد عن الركب.

في عالم القرن الحادي والعشرين، تتزايد أعداد المهاجرين الباحثين عن مأوى، عن أرض رحيمة. أود أن ترحب بهم أرضي الكريمة. يقال إن ما يكفي اثنين يكفي ثلاثة. هذا قول شائع يجده المتشائمون ساذجًا تمامًا – أو حتى سخيفًا – ولكنه صواب ! لأن الأمر لا يتعلق بامتلاك المزيد، بل يتعلق بامتلاك أقل والقناعة به. يستهلك كل فرد ما يسمح له بالعيش الكريم في أمان وسهولة وليس في ترف. يكفي تبني ذلك القول المأثور القائل إن كل وافد جديد يجلب فوائد جديدة. أود أن نرحب بهؤلاء الأجانب المرحلين مثلما حلم أجدادنا وأولياء أمورنا وحلمنا بأن الأراضي البعيدة ترحب بأجدادنا وآباءنا وأعمامنا وإخوتنا وأبنائنا،

عندما ذهبوا إلى المنفى حتى تكون لنا نحن المتبقين في بلدنا، حياة أفضل. اليوم، تسعى بناتنا وأبناؤنا إلى حياة أفضل في أماكن أخرى، لأن الحلم سلب منهم على أرضنا.

إذا أردنا أن يجد أطفالنا طريقهم هنا أو في أي مكان آخر، يجب أن نعمل على جعل الأرض بأكملها أرضًا ترحب بالجميع.

في عصر العولمة، فإن الجزائر التي أحلم بها هي جزء من حلم أكبر يشمل البشرية جمعاء. أنا مقتنعة بأننا لن نستطيع أن نصبح أفضل إلا إن قمنا بذلك معا. ليس الجزائريين فحسب، ولكن كل البشر معًا. الطريقة الوحيدة التي يمكننا بها جميعًا العيش من ثرواتنا هي الموافقة على تقاسمها.

العالم الذي أحلم به هو أولاً عالم بلا حدود. عالم لن يُحكم فيه على الحراقة، المهاجرون من جميع الأصول، بالمغادرة دون عودة. سيكون للشباب والرجال والنساء، الحرية في الذهاب والعودة للعيش أين يمكنهم تقديم أفضل ما لديهم، وحيث يحتاجهم الآخرون. لن تتركز الموارد بجميع أنواعها، بما في ذلك الموارد البشرية، خارج حدود معينة.

نحن متفقون، أليس كذلك؟ متفقون أن الحلم هو موقف نود أن نراه يتحقق في المستقبل، سواء كان قريبًا أو بعيدًا. أسأل نفسي: هل ما زلت قادرة على الحلم؟

هل تتأثر هذه السعة بالحالة الصحية والأمنية الحالية، أم ببساطة تتأثر بعمري ؟ أم بوضعي الاجتماعي ؟ إنه وضع غير مسبوق في مجتمع مثل مجتمعنا. لا أعرف الرموز لفك شيفرة رؤى المستقبل لامرأة في وضعي. يجب اختراع هذه الرموز. هل سيصنعها جيلي ؟ لا أعرف أي امرأة في وضع مماثل يمكن أن تكون قدوة ملهمة. أعيش وحدي مع أن لدي أطفال ! وهذا خياري !

أعرف ما لا أريده، لكن لا يمكنني تخيل ما أحلم به. على سبيل المثال، لن أتطفل على حياة ابنائي لإعطاء معنى لحياتي. يبدو أن سني يحتم عليّ أن أكون جدة، وحسب مَنْ هُمْ حولي، يجب أن أقوم بهذا الدور. أن أكون جدّة، لم تكن أبدًا وجهة أسعى لتنميتها. إن أصبحت جدة يوما ما، آمل ألا يكون هذا هو الدور الوحيد الذي بقي لي.

أو ربما أنا في السن الذي تصبح فيه الأحلام هي الأشياء التي حققها الأشخاص الذين استطاعوا بناء أنفسهم ؟ وهل الطريق المتبقي لي هو طريق اكتمال أحلام شبابي ؟! هل كنت لأحلم بحياة في أوجها ؟ وهنا أجد نفسي غير قادرة على أن أحلم بجزائر تكون لي فيها نهاية حياة مشرقة ؟!

قد يكون الحلم بمستقبل لنفسي شيئًا لا أجرؤ عليه. أو بالأحرى، أتمنى لو أن الحياة تخبئ لي، مرة أخرى،

طريقا لم أكن أتخيله ! وبالمثل، قد لا أستطيع تخيل جزائر مستقبلية. أود أن أفاجأ بجزائر لم أجرؤ على الحلم بها ! جزائر يجرؤ أطفالنا ويعرفون كيف يحلمون بها في مكاننا. نعم، دعونا ننقل لهم شعلة جزائر الغد، جزائر الحلم ! فلنثق بهم، ولندعهم يحلمون لنا بجزائر جديدة ! أليس هذا هو التخلي الذي نطلبه من حكامنا ؟

فريال، 32 سنة، جزائرية منذ البداية، ابنة بشرى

بأي جزائر تحلمين ؟ يا له من سؤال مضحك ! بأي جزائر أحلم، أنا ؟ أحلم بجزائر يمكن أن تحلم فيها. ولا أتحدث هنا عن تلك الأحلام المصطنعة التي تشتريها في حافة الطريق من سيارتك، أو من داخل « مستودع »، والتي تتبخر مع بداية الأسبوع. أحلم بجزائر. لا نحلم فيها بمغادرتها، لا نحلم بتوديعها راكبين طائرة أو باخرة. بجزائر متجهة نحو الجنوب ومنفتحة على العالم. جزائر تكون لنا كلنا فيها مكانة. لا مكانة نستعيرها ليأتي أحدهم ويأخذها لأن « كتفه » أعلى من كتفنا.

أحلم بجزائر يكون لي فيها الحق في الحلم : اليوم لا أستطيع تحمل تكاليف ذلك، وأنا أعلم « أنهم » سوف يسرقون أحلامي. يمكننا أن نحلم في جزائر تميل فيها العدالة إلى العدل وليس إلى القوي. في جزائر يختفي

فيها هذا الشعور بالذنب الذي يسكننا، كلما مشينا في « شوارعهم ». أحلم بجزائر لا أخاف فيها على حياتي من أن أكون مذنبًا بالقول والتفكير والكتابة، والرسم، والغناء، والرقص.

أحلم بجزائر تعرف نفسها ولا تخشى أن ترى ذلك. جزائر تعرف تاريخها، لا ذلك الذي يُحكى لها بزرع التماثيل في وسط الممرات الدائرية للطرقات. ممرات دائرية تخلق المشاكل التي من المفترض أن تحلها. ممرات دائرية في وسط أحياء لا نملك فيها شيئا. « لا سيدتي، عقد الإيجار غير صالح للحصول على شهادة إقامة، أنت بحاجة إلى عقد ملكية ! » هل تعرفون الكثير من الملّاك ؟ أحلم بجزائر يمكن فيها للجميع امتلاك منزل. وليس منزلًا من الورق المقوى يمكن للأطفال كسره إذا اتكأوا بشدة على الحائط.

أحلم بجزائر بلا غاز وبلا بترول. جزائر بمستشفى يتسع لـ 120 ألف مصلي... آه مريض. جزائر لا يزال من الممكن فيها أن تمنحك الشهادة وظيفة، دون مكالمات هاتفية، دون تقديم خدمة. جزائر ستستغل مهاراتي وليس « معارفي ».

أحلم بجزائر نفرق فيها بين رمال الشاطئ ورمال جبل عرفة. شاطئ من دون جهة « غرفة عائلية مكيفة » بالنسبة إلى البعض، و« احذروا من الخطر » للواتي تلمع بشرتهن تحت الشمس بكل وقاحة. جزائر لا تحلم

فيها الفتيات الصغيرات بأن يصبحن أطفالا حتى يكون لهن أيضًا الحق في الصعود على الصخور.

أحلم بجزائر يمكن فيها للحب أن يتواجد دون الحاجة للاختباء. جزائر يتم فيها تعليم الثقافة الجنسية لتجنب الحمل الذي لا يريده أحد والالتهابات التي لا يشخصها أحد. جزائر لا يضطر فيها اثنين إلى الاختباء في سيارة أو « ديكي » أو حديقة حيوان أو قبو في مبنى. جزائر لا تخاف من نفسها ورغباتها.

مثل الآلاف من قبلي، أنا أيضًا غادرت. لكنني عدت بسرعة: ليس لديك الحق في الشكوى إذا لم تحاول تغيير الأشياء! حاولت تغيير الأشياء، حاولنا تغيير الأشياء. غنينا معًا، رددنا معًا، بكينا، رُكِلنا، ركضنا، وحلمنا معًا مرة أخرى. وفي الأخير، فإن الجزائر ما زالت ليست ملكًا لنا. لكن بعد كل شيء، لم أختر أن أولد هنا، أنا، في هذه الجزائر. لذلك أحلم اليوم بالمغادرة مرة أخرى. لا ندم هذه المرة، متأكدة من عدم العودة.

أحلم بالجزائر التي « يصفونها » لنا خلال مؤتمراتهم الصحفية، عن الجزائر التي يحلم بها الجميع. جزائر تشبه شعبها: مرحة، ملونة، حيوية، مليئة بالحماس، والطاقة، والأمل، والضحك. لكن في انتظار أن ترحب بي أخيرًا، أحلم بجزائر لن أضطر فيها إلى إعادة قراءة هذه السطور مئات المرات، لئلّا تؤدي بي هذه الكلمات إلى عدالة ظالمة ...

زكـي، 23 سـنة، يحلـم أن يصبـح سـينمائيا ولا شـيء غير ذلك، ابن بشـرى

مـن أيـن أبـدأ ؟ علاقتـي ببلـدي معقـدة وحبـي لهـا يتناسـب عكسـيًا مع المسـافة التـي تفصلنـي عنهـا : إنهـا ظاهـرة شـائعة لـدى الجزائريين المسـافرين. فخرنـا وحبنا الشـديد لوطننا يكون في أشـده عندما نكون على بعد آلاف الأميـال منـه.

أعتقـد أنـه مـن التسـرع تصنيـف هذا الشـعور كشـكل من أشكال الحنين العادي. في حالتي على الأقل، المسافة تجعلني أتأمل في الأشياء الأكثر أهمية لسعادتي. هل من الضروري حقا العيش في دولة علمانية لتكون سـعيدا ؟ أليس الأهم أن أكون محاطًا بأحبائي ؟ هل من الضروري أن أكـون قـادرًا على تناول الطعام دون قيود خلال شـهر رمضـان، أم أن الشـعور بأنني في بلدي هـو أكثر أهمية، حتـى لو كان هذا يضطهدني ؟

هـذه هـي الأسـئلة التـي طرحتهـا أنـا وأصدقائـي علـى أنفسـنا منـذ أن اسـتقرينا في فرنسـا : النـاس هنـا أقـل دفئًا وتلقائيـة وانفتاحًـا ممـا هـم عليـه فـي الجزائـر، لدرجـة أننـا نشـك أحيانًـا في مزايا غربتنا. لسـوء الحظ بالنسـبة إلى بلدي الأصلي، فإن هذا الشك يزول، ويبدأ معظمنا في تكويـن صداقـات ويحبـون ويقطعـون الحبـل تدريجيًا مع الجزائـر. يتحدث البعض عن مشـاريع سـوف يطورونها

في « مسقط رأسهم »، عندما يكون لديهم الأموال والخبرة اللازمتين، ولكن بالنسبة إلى الغالبية العظمى، تبقى هذه الأفكار مجرد خيال.

المشكل في بلدي هو العقليات. أجد محيطي متشائما وانهزاميا بشكل غير عادل بشأن مستقبل هذه الأمة. يتفق الجميع تقريبا، كبارًا وصغارًا، متعلمين أو غير متعلمين، عاطلين عن العمل أو عاملين، على أن مستقبلنا لا يمكن إلا أن يكون قاتمًا، ويشجعون أي شخص يستطيع الذهاب إلى المنفى، أن يفعل. يزعجني ذلك ! لا تبنى أمة « عظيمة » في ثمانٍ وستين سنة. لكن أمتنا محاصرة في حلقة مفرغة من السلبية تغذيها هجرة العقول.

على الرغم من الجو الثقيل، والرطوبة التي تخنقني عند الخروج من المطار، وجميع المشاكل المذكورة أعلاه، أغذي الرغبة في العودة إلى البلاد لأعيش حياة زهيدة تغذيها الموسيقى والسينما، لأقوم بعمل هناك يسمح لي بكسب لقمة العيش والسكن في شقة مشتركة مع أصدقائي. لا أعلم إذا ما كان ذلك مازوشية أم مجرد رومانسية، لكنني أراه نمط حياة ساحر، حياة وسط مجتمع غير متسامح عموما تجاه الكفار أمثالي، حياة بوهيمية تقريبا. وجود تتقاسمه نفاث دخان الحشيش ومشاريع أفلام قصيرة على خلفية *Shine On You Crazy Diamond* لبينك فلويد.

على الرغم من أن وجهة نظري قد تبدو محبطة، إلا أنني لم أعش دائمًا في حالة رفض الجزائر. صادف أنني كنت أقود مشروعًا ثقافيًا جعلني أنسى تمامًا انزعاجي المعتاد، وسمح لي بإلقاء نظرة خاطفة على ما يمكن أن تكون عليه حياتي، بشرط وحيد وهو أن أكون غارقا تماما وكل يوم في عمل يثير شغفي. مع أصدقائي الثلاثة المقربين، أنشأت بالفعل برعمًا تجاريًا باسم *Le Vinyle* لشهر رمضان 2018. انتهزنا الفرصة لنكون قادرين على استغلال حديقة واسعة بحرية، بنباتاتها المورقة، لتنظيم الأحداث الثقافية خلال كل سهرة من الشهر الكريم ثم مرتين في الشهر لمدة سنة. لأول مرة في حياتي، شاركت في نشاط قريب من قلبي لدرجة أنه بدا لي أنه من الممكن أن أعيش سعيدا في الجزائر العاصمة.

كان تنظيم الأحداث جذابًا، وكانت التجربة جديدة، وكانت ردود الفعل من الزبائن إيجابية. من خلال الترويج للفنانين الشباب وغير المعترف بهم – دعنا نغض النظر بتسامح عن أنه لم تكن لنا الموارد المالية لنقوم بالأمر بشكل مختلف – ومن خلال تقديم المشروبات بأسعار منخفضة، نجحنا (هل ذكرت جانبي المتعجرف أحيانا ؟) في خلق مساحة للتبادل، حيث استهدفنا شريحة معينة من شباب الجزائر العاصمة تم اقصاؤها من غالبية الأماكن – الخيمات وأماكن أخرى – الباهظة الثمن ولا فائدة منها (أخبرتكم أنني متحذلق). قدمنا

لها معارض فوتوغرافية وحفلات موسيقية وجلسات ارتجالية في حديقتنا الساحرة.

ومع ذلك، فقد تداركتنا الحاجة الحتمية للاستثمار من أجل جعل أعمالنا مربحة. كما أن *الفينيل* يبقى تجربة مميزة في حياتي في الجزائر العاصمة: لقد تعلمت أنه إذا بذلت عرقًا وشغفًا (ومالًا قليلا، وليس منعدما)، فلا يزال من الممكن كسب لقمة العيش في الجزائر في المجال الثقافي.

منذ ذلك الحين، انتقلت إلى تولوز حيث أطمح إلى جانب دراستي لأن أصبح مخرج أفلام. مشروع فيلمي القصير الأول قيد التنفيذ ويمكنني أن أتخيل بالفعل اقتحام هذا المجال الخطير وجمع الأموال اللازمة والعودة إلى البلاد لإنشاء مدرسة أفلام.

فرنسا بلد ثقافي، لذا سأكون أكثر فائدة للإنسانية (سأنتهي من التباهي قريبًا، أعدك !) إذا قمت بتطوير مشروعي في الجزائر. لكن طموحي لن يتحقق أبدًا في ظل غياب صناعة سينمائية جزائرية حركية. سيكون من المستحيل بالنسبة إليّ على الأرجح خلق فرص عمل لطلابي المفترضين. من بين أربعمائة وخمسين قاعة عرض كانت موجودة غداة الاستقلال، لم يبق منها سوى خمسة عشر قاعة محصورة في المدن الكبيرة. ومما يبعث على الأسى أكثر (نعم، لم أنته من الشكوى...)، أن الأفلام الجزائرية لا تُعرض في الجزائر: أتيحت لي

الفرصة مؤخرًا لمشاهدة فيلم *أبو ليلى*، وهو أول فيلم روائي طويل لأمين سيدي بومدين، في باريس. أشعر بالحزن الشديد لأنه لن يعرض في الجزائر لأنه فيلم أذهلني من كل جانب، سواء التصوير الفوتوغرافي أو السيناريو أو العرض. أنا أعتبر أمين سيدي بومدين كقدوة بالفعل. الآن، كيف يمكننا أن نتخيل جزائر مثقفة وواعدة إذا كان إعجابي بصانع الأفلام هذا لا يمكن مشاركته مع أبناء وطني ؟

لا أرى أي فائدة من افتتاح مدرسة سينمائية يحضرها فقط أطفال من عائلات ميسورة، سيذهبون لاحقًا للعمل في صناعات أفلام أجنبية، أو أسوأ من ذلك، سيقومون بهذه الدراسات فقط لملء حياتهم الفارغة.

مؤخرا نشرت سوناطراك تقديراتها لاحتياطيات البترول (لكن لماذا نتحدث فجأة عن البترول يا زكي ؟) : بعد واحد وعشرين عاما لن يكون لدينا المزيد. بمجرد انتهاء اعتمادنا على المحروقات، سيبدأ اعتمادنا على العقول (لنكن متفائلين !) ستكون، في رأيي المتواضع، فرصة لبلدنا لأخذ منعطف جديد. في غضون ذلك، فأنا أتابع تطور شكوبيستان عن قرب، آمل أن أتمكن من العودة إلى هناك في الوقت المناسب !

حكاية ج.

لويزة منقور

كانت ج. تبلغ من العمر ستة عشر عاما عندما عرفتها، كانت تأتي لزيارة أختها الكبرى في مصلحة أمراض الأعصاب التي كنت أشتغل فيها. عانت الأخيرة مرض تنكس عصبي جعلها طريحة الفراش تماما وهي لا تبلغ من العمر سوى ثلاثين سنة. لا أعرف ما هي الذكريات التي تحتفظ بها عني، فربما لا تزال تلعن اليوم الذي وضعت عيني عليها، متتبعة بدايات المرض الذي تعانيه أختها. بصراحة، لا أعرف كيف وبأي كلمات عرضت أن أفحصها... ربما كان الأمر محرجًا ومتعجرفا. بعد أن انخدعت بنواياي الحسنة، منحت نفسي الحق في التدخل في حياة شخص لم يكن في حاجة صريحة للرعاية.

أتذكر تماما ترددها ودموعها ثم غضبها من إصرار أختها ووالدتها على إقناعها بالقبول. كُنّ مليئات بالأمل، بالحصول على تشخيص وعلاج يجعلها تفلت من مصير أختها التي بدا أنهم تقبلوه كون الأوان قد فاتها.

احترمت رفضها، لكن في اليوم التالي جاءت والدتها معها إلى مكتبي: « أحضرت لك ج. لتريها ». جئنا من مكان بعيد، من مدينة داخلية، كانت الأم متواضعة للغاية ومحترمة؛ نظرتها المتوسلة تشوشني دائمًا، بدت دائمًا تتوسل للحصول على خدمة. كنت أحس بالأسف تجاهها، وتمنيت لو كانت قوية وأن تعلم أنه من حقها الأسمى أن تطلب أفضل رعاية لبناتها، وأنها ليست هنا لتتوسل أي شيء وأن من واجبي وعملي الخضوع لذلك تماما. كنت أرغب في أن تدرك أنهن كُنَّ في هيكل ليس له أي مهنة أخرى سوى العمل على التخفيف من معاناة المواطنين وعلاج صحتهم وتعزيزها. الحقيقة أيضًا هي أنني عرفت على الفور أنه ليس لدي أي خبر جيد لأزفه، كنت رسولة الشيطان وأردت أن أقول لها: « من فضلكِ، لا داع لأن تكوني لطيفة معي، لن يغير ذلك جيناتَ بناتك ».

كان رأس ج. مطأطأً، وكانت نحيفة جدًا وخجولة للغاية. حاولت أن أريحها، أعطتني بعض الابتسامات قبل أن تخلع حجابها وتجلس على طاولة الفحص. أخرجت الأم التي كانت، على ما أعتقد – وربما هذه هي سمة جميع الأمهات – الكائن الوحيد على هذه الأرض القادر على جعل ج. تنفجر غضبا، وهي التي كانت عادةً سهلة الانقياد ولطيفة للغاية. كانت السيدة

المسكينة مشغولة حولها، يأكلها القلق، ما ضاعف من توتري، إلا أنه كان من الإجرام إظهار ذلك.

لقد حرصت على ألا أبدأ بالحالة الشاذة التي لاحظتها والتي أثرت في نظراتها، وفحصت مهاراتها الحركية وردود فعلها، وحساسيتها، وتنسيقها ووظائفها العصبية الأخرى، وطمأنتها في كل مرة، بينما كنت أحاول إخفاء عدم ارتياحي.

قامت بالحركات السخيفة التي يتطلبها الفحص العصبي وسألتني بصوتها الخفيف جدًا والمكتوم عما إذا كانت تقوم بالحركة الصحيحة. تخلل الحديث أحيانًا ضحكتها المحرَجة، وأحيانًا دموعها الصامتة. ثم جاءت اللحظة المصيرية. كان عليَّ أن أفحص الأمر المريب: نظرتها. طلبت منها أن تنظر إلى اليسار ثم إلى اليمين، دون تحريك رأسها، لتتبع هدفًا كنت أقوم بتحريكه في كل الاتجاهات، ثم لتنظر سريعًا إلى الباب من جهة ثم النافذة من جهة أخرى. هنا ظهر المشكل. كان رأسها يتحرك نحو الهدف بسرعة لكن عينيها كانتا مشدودتين قليلاً وتنتقلان ببطء في حركة لزجة. جعلتها تكرر التمرين دون تعليق وعندها قالت في لحظة عزة نفس: « أني على بالي ... » رأيت في ذلك قليلا من الوقاحة، وكأنها تقول: « إنني أعرف كل شيء، لا تعتقدي أنك اكتشفت شيئًا جديدا! » مع ذلك، كان التشوه طفيفا جدا، فقد تطلب الأمر إما نظرة طبيب متمرس مسترشد

زيادة إلى معرفة بحالة الأخت الكبرى المتقدمة، وإما التحقيق المدقق لمراهقة تخاف من الإدانة وتراقب بدقة أي أخطاء في آليات جسدها.

سألتها عما تعرفه، أجابتني بصوتها الخفيف الذي تتخلله الدموع : « أعلم أنه عندما أدير رأسي لأنظر إلى شيء ما، فإن عينيَّ لا تتبعان ». اضطررت إلى أن أنقب في أعماق نفسي ... – كيف أسمي ذلك ؟ – عن القوة، أو الضراوة، أو الشجاعة، أو القسوة، حتى لا أنهار بجانبها وأعترف أن الحياة ليست سوى خراءً كبيرا.

***

بدل ذلك، وضعت يدي الحنونة عليها وأخبرتها أن كل شيء سيكون على ما يرام وأنه يجب إدخالها إلى المستشفى حتى نقوم بتعميق الفحوصات ... رفضت، ثم أصرت عائلتها واستسلمت في النهاية.

بعد أسبوع، تم قبول ج. في المصلحة. رأيتها تختلط بالمريضات الأخريات، كانت تستمع أكثر مما تتحدث، إلا أنني سررت كوني لم أرها منعزلة. بما أننا نجد دائما من هم أسوأ حالا منا، أود أن أعتقد أن رؤية المرضى الآخرين يساعد العديد منهم على الشعور أقل بالوحدة ويخفف من نظرتهم اتجاه حالهم. حتى وإن

كان التواجد قرب مرضى آخرين بالنسبة إلى البعض يدمرهم أكثر بدلاً من تحفيزهم.

بشجاعة كبيرة خضعت ج. للفحوصات الإضافية، ورأيتها تصير شاحبة في غرفة التصوير بالرنين المغناطيسي : غرفة صغيرة وضيقة ومظلمة فيها أنبوب بالكاد أعرض من التابوت يصدر ضوضاء تصم الآذان. وعززت نتائج تحاليل دمها الفرضية التشخيصية التي أكدتها الدراسة الجينية فيما بعد. جاء التشخيص بعد أسبوع : كانت تعاني نفس مرض أختها، أي من ترنح مع تعذر الأداء الحركي للعين من النوع الثاني، وهو مرض وراثي تنكسي يصيب المخيخ بشكل أساسي ويتميز في البداية في سن المراهقة بوقوع اضطرابات في التوازن وفي تنسيق الأطراف وحركة العين. يتطور الأمر تدريجيا وببطء، وغالبًا ما تؤدي الصعوبات الناتجة عنه في المشي إلى السقوط : يصبح استخدام الكرسي المتحرك أمرًا لا مفر منه في سن الثلاثين، عندما يشتد نقص توتر العضلات ممّا يمنع إمكانية الوقوف.

يسبب هذا المرض أيضًا صعوبات في الكتابة والقراءة، وفي كل الحركات الدقيقة مثل غلق أزرار قميص أو ربط حذاء، والغسيل ووضع المكياج... ثم تظهر صعوبات في تنسيق عضلات البلع والكلام ويسبب ذلك خلطا بين طرق الهواء والطعام ومشاكل

في النطق، ويصبح الكلام غير مفهوم، ويصير الأكل امتحانا ويموت المريض في أغلب الأحيان من التهابات الجهاز التنفسي من كثرة استنشاق بقايا الطعام.

سأكون مؤدبة بما فيه الكفاية لتجنب إخباركم بما شعرت به في اليوم الذي اضطررت فيه إلى إخبار ج. ووالديها. اضطررت إلى تخفيف وطأ الجملة الآتية: « لديك مرض وراثي لا يمكن علاجه وعليك التعايش معه». ألقت بنفسها في أحضاني، وهي تلهث وتختنق. كان الوالدان غارقين، ثم همس الأب: *آهم زوج، آه الطبيبة، زوج*! بدا غاضبًا – وبحق – من القدر الذي تحامل على عائلته: البكر أولا، والآن ج.

لم تكن لدي « شجاعة أن أكون جبانة » وذلك ماكان سيدفعني للهروب من هذه الغرفة، وأن أختفي وأتبخر. لم أشعر أنني على ما يرام وأحسست بعقدة في بطني. كان عليّ أن أجد توازنًا بين الكلمات المطمئنة، ولكن قبل كل شيء غير المضللة، وبين الصمت المقصود منه إعطاء العائلة الفرصة لصياغة أسئلتها، وللتنفيس عن غضبها وألمها وفزعها.

هدأت « ج. » قليلاً، وسألتني إن كانت ستصبح مثل أختها. هنا شرحت لها بشكل ملموس الخيارات المتاحة أمامنا. صحيح أنه في الوقت الذي بدأت فيه الأعراض الأولى بالظهور على أختها، كانت أحوال إعادة التأهيل الوظيفي وإدارة أمراض الحركة

في الجزائر في المرحلة البدائية. لم تتلق الشابة أي مساعدة حينها. منذ ذلك الوقت، ظهرت عدة مراكز في جميع أنحاء البلاد، بما في ذلك واحد من بين أفضل المراكز، متواجد جنب المصلحة التي كنت أعمل فيها. استوعب المكان المرضى الذين شخصناهم في مصلحة أمراض الأعصاب. شرحت للعائلة أنه حتى ولو لم يكن هناك علاج، سنعمل ما بوسعنا لكي تبقى ج. مستقلة لأطول وقت ممكن، وأن حالتها لن تتدهور بالسرعة الفائقة التي تدهورت بها حالة أختها. وقد حجزنا موعدا لليوم الموالي مع فريق إعادة التأهيل ويمكن للعائلة الحضور للمشاركة في العملية لكي تتعرّف على التقنيات المستعملة ولكي تتعلّم إعادة بعض الحركات في المنزل. وكان الوالدان مذهولين من كثرة التجهيزات المتوفرة في المركز الذي كان يشبه قاعة ألعاب، وأضاءت وجوههم عندما قدم طبيب إعادة التأهيل فريقه من أخصائيين للعلاج الطبيعي وأخصائيين في النطق والمعالجين الوظيفيين وأخصائيين في التغذية وشرح لهم استراتيجية التكفل في شكل فترات إقامة منتظمة وزيارات منزلية.

من دون مساعدة الأخصائية النفسية، السيدة صوريا، لا أعرف كيف كنت سأتعامل مع حالة ج. لأنني كنت بحاجة لمساعدة نفسية. ربما من المثير للشفقة أن أفكر في ذلك، وبالتأكيد سيكون في غير محله

أن أقول ذلك، لأن معاناتي الأخلاقية سخيفة مقارنة بمعاناة ج.، لكن أن أكون على اتصال دائم تقريبًا بألم البشر وتهالك الأجساد ليس أمرا هينا، خاصة في هذا التخصص حيث تكون الخيارات العلاجية محدودة للغاية. لذلك فأنا لست مؤهلة لإدارة تأثر مرضاي انطلاقا من عتبة معينة. ربما أخرج عن واجب تحفظي قليلا عندما أذكّر أن هناك إنسانًا وراء «المُشخِّص»، قد ترغبون في أن أكون آلة محكمة الغلق أو ربما تريدون مني أن أكون عكس ذلك تمامًا؟ لا أعرف ما الذي يفترض بي أن أشعر به أو ما هي أفضل طريقة للتصرف، أتعلم - آسفة لصياغة الأمر بصراحة - في الوظيفة، أتأقلم وأتكيف.

يفهم مما قلت إنه لا يكفي أن يكون لديك تعاطف مع الناس لتكون قادرًا على مساعدتهم، فالنوايا الحسنة ليست كل شيء. ولهذا السبب هناك محترفون مهمتهم دعم الآخرين. أجرت صوريا استشارات يومية مع ج. أثناء مكوثها في مصلحة الأعصاب ثم في مركز إعادة التأهيل الوظيفي، ناقشت معها مخاوفها وطموحاتها وأحلامها والعقبات الحقيقية الكامنة في إعاقتها والقيود الخيالية التي فرضتها على نفسها... شيئًا فشيئًا، على مدار الأسابيع، تمكنت من كسر السقف الزجاجي الذي بنته الشابة.

تحدثت صوريا أيضًا مع الوالدين، فأسرا لها مخاوفهما من عدم الاستقلالية، ومستقبل ج. : ما الذي سيحدث لها عندما يرحلان عن هذه الدنيا، من سيهتم بها ؟ كانت قادرة على تهدئة مخاوفهم من خلال إبلاغهم بوجود هياكل دولة لائقة تمامًا.

كما نصحتهم أيضًا بالسلوك الذي يجب عليهم وعلى أفراد الأسرة الآخرين اتباعه مع ج. : يجب ألا تجعلها إعاقتها الجسدية قاصرًا مدى الحياة، فهي قادرة على الإرادة والأحلام والإنجازات. استمرت في إخبارهم بأن فريقًا كامل الخبرة سيتكفل بها لإطالة استقلاليتها.

نقلت صوريا ملاحظاتها بانتظام إلى الفريق الذي صرت أشكله مع طبيب إعادة التأهيل حتى نتمكن من تكييف حديثنا مع ج. ووالديها. من السيء إغراق الناس بالمعرفة التقنية والتفاصيل النظرية منذ البداية، فهم مذهولون من قسوة الحكم وسرعان ما يتجاوز الأمر قدراتهم على الاستيعاب. من الأفضل منحهم الوقت للهضم، وأن نتحلى بالصبر لتكرار المعلومات، لاحقًا، وأحيانًا عدة مرات.

من خلال التعمق في الشعور بالذنب الذي يعيشه هذان الزوجان اللذان تربطهما صلة دم واللذان كانا يعتبران، بعد ذلك، أن زواجهما كان « الخطيئة الأولى »، أي أصل مصائب بناتهم وكانا قلقين على بقية أبنائهم وذريتهم، نصحتني صوريا أن أكرر التفسيرات الجينية.

عندما تزوجا، لم يكن الناس على دراية بالمخاطر المرتبطة بزواج الأقارب، ومن ثم انتشار الأمراض الوراثية في المغرب الكبير. ومنذ ذلك الحين، أطلقت الدولة حملة إعلامية وتوعوية واسعة حول هذا الموضوع : لقد لعبت المساجد والمدارس وموظفو الحالة المدنية دورًا في زيادة الوعي. وبالتالي، فإن الشهادة الطبية قبل الزواج لم تعد مجرد إجراء إداري شكلي، بل صارت تتويجا لعملية فحص تتغذى على المشورة والخبرة الواعية للأطباء المدربين والمطلعين.

باستخدام المخططات والنماذج التي قدمتها وزارة الصحة للوقاية من الأمراض الوراثية، أوضحت للوالدين أن كل واحد منهما، على حدىً، لديه جين مريض وآخر سليم. ما يعني أنهم هم سليمون من الأعراض. ينقل كل والد بشكل عشوائي نصف تراثه الجيني إلى نسله، كل طفل لديه فرصة 25٪ في أن يكون بصحة جيدة، و50٪ من أن يكون حاملًا سليما، و25٪ من خطر الإصابة بالمرض إن ورث كل من الجينات المعيبة من والديه. هذه العملية برمتها، على الرغم من كونها مرضية، فهي طبيعية تمامًا وخارجة عن سيطرة أي شخص، ولا يمكن فعل أي شيء حيالها باستثناء الوقاية منها. من الآن فصاعدًا، كانت مهمة والدي ج. هي منع أطفالهم من الزواج من أبناء عمومتهم الذين ربما كانوا أيضًا حاملين للشذوذ الجيني.

بعد ستة أشهر، عندما رأيت ج. مرة أخرى لإجراء فحص طبي، بدت رائعة وابتسمت في سلام، كانت دائمًا برفقة والدتها، لكن هذه الأخيرة كانت أقل هياجًا ولم تعد تتحدث في مكان ابنتها.

أخبروني أن جميع أفراد العائلة صاروا يقيمون مؤقتًا في الرويبة بفضل المساعدة الإيجارية المخصصة للأشخاص ذوي الإعاقة التي حصل عليها الأخصائي الاجتماعي في المستشفى، بينما يستفيد سكنهم من أعمال التطوير وإمكانية الوصول التي يتكفل بها بالكامل من قبل الضمان الاجتماعي.

أخبرتني ج. أن مركز إعادة التأهيل أعادها إلى الحياة وأزال السيناريوهات الكارثية التي تخيلتها، وأخبرتني أنها تعشق العلاج بالمياه المعدنية بشكل خاص وأنها مستعدة لبذل كل الجهود لتكون قادرة على الوقوف. ثم أخبرتني، ضاحكة بصوت عالٍ، أنها لن تستسلم أبدًا، مع ذلك، لإصرار معالج النطق الذي أرادها أن تغني ألحان أوبرا.

عند فحصها، لاحظت أن حالتها بدت مستقرة إلى حد ما. كانت مشيتها لا تزال صحيحة تمامًا ولم تكن أطرافها تهتز. عندما طلبت منها كتابة شيء ما حتى أتمكن من الحكم على تنسيقها الجيد، ابتسمت وطلبت ألا أنظر حتى تنتهي. ثم سلمتني قطعة من الورق كتب عليها: « *ماتخافيش، يجيبولي شكون يكتبلي في الباك* » بخط

أخرق، ولكن لا يزال مقروءًا، متبوعًا برسم مبتسم. سررت بهذه النكتة الصغيرة، وسعدت لأنها تقبلت الأمور وشعرت بالامتنان الكامل لفريق الرعاية بأكمله.

دعتني لحضور اجتماع نظمته جمعية مرضى الترنح التي انضمت إليها، بتشجيع من صوريا. ذُهلت من تحولها، فقلت لنفسي: بشرط أن تحافظ على هذه الطاقة! أوضحت لي أن الغرض من الاجتماع هو جعل هؤلاء المرضى الذين يعانون المخيخ معروفين لدى عامة الناس وإبراز هؤلاء المرضى الذين يحسبهم الناس أحيانا سكارى بسبب مشيتهم غير المتوازنة. سيشارك الرياضيون من أجل جعل إجراءات إعادة التأهيل أكثر متعة، وستقدم ج. عرضًا تقديميًا حول تقنيات السقوط برفقة بطلة الجودو الكبيرة والوزيرة الجزائرية: بالنسبة إلى الرنح، فإن السقوط دون إيذاء نفسك هو بالفعل أول شيء يجب تعلمه من أجل تفادي تفاقم الإعاقة بسبب كسر أو التواء.

قبل أن تخرج، أعطتني ووجنتيها محمرتان قليلا سوارا صنعته في ورشة علاج بالممارسة. «لكي تشكرني، حسب قولها، لأنني أتيت بالفوضى إلى حياتها».

احتضنتها ووعدتها أنني سأزورها لأراها... تسقط على وجهها فوق حصير التاتامي!

تصويب

لم يحدث شيء كما أخبرتكم، كل ما سبق هو عبارة عن حلم، ليس الذي نراه عندما ننام، ولكن بالمعنى الطوباوي للمصطلح. لذلك يجب أن نعيد هذه القصة إلى لحظة إعلان التشخيص: لقد بكوا بالفعل، وأردت أن أختفي.

لم تستفد ج. أبدًا من دراسة وراثية لأنها موجودة فقط لحفنة سخيفة من الأمراض في الجزائر. كانت آلة التصوير بالرنين المغناطيسي في المستشفى متوقفة واضطر والديها، الفقيرين إلى حد ما، واللذان نفد صبرهما بشكل مشروع، إلى الدفع لإجراء هذا الفحص في مركز أشعة خاص... ربما لم يسددوا ديونهم حتى الآن.

تم التشخيص على أساس مجموعة من الحجج المقنعة، ولكنه لم يكن تشخيصًا مؤكدًا؛ لا نعرف بأي نسب تفشى هذا المرض الوراثي أو ذاك في الجزائر، ولا نجري أبحاثا، ولا أعتقد أننا سنكتشف علاجات في أي وقت قريب.

شرحت لهم طريقة انتقال العدوى لكنني لا أعرف ما إذا كانوا قد فهموا أي شيء عن «الجينات» و«الحمض النووي» و«المخيخ» وغيرها من الهراء الذي لا يمكن ترجمته إلى الدارجة. لم يكن لدي مخططات ولا

نماذج. أومأوا بالموافقة لكنني رأيت الفراغ الكبير في حدقاتهم التي وسعها الرعب.

قلت لهم، وأصررت على ألا يتزوج أولادهم من أبناء عمومتهم، لكن من المحتمل أن ينسى الإمام ومدير المدرسة تكرار ذلك لهم؛ وكون التكرار أساس التعليم، فلن ننتهي من وجود مرضى في الجزائر. نصحتهم بعدم الذهاب للبحث عن تشخيص آخر في القطاع الخاص لأن ذلك لن يؤدي إلا إلى تدميرهم أكثر. كتبت خطابًا موجهًا إلى مصلحة إعادة التأهيل الوظيفي وأرسلتهم إلى المنزل مع وصفة طبية للمكملات الغذائية، حيث إنه وفقًا لإرشادات أستاذي، لا ينبغي إطلاق المريض دون حبوب، فذلك يشكل أضعف درجات العناية...

لم نلتقِ قط ببعضنا البعض منذ ذلك اليوم، لأنه بعد دخول المستشفى، يتم فحص المرضى في مركز آخر، من قبل طبيب آخر لا يعرفهم حتى في بعض الأحيان.

علمت لاحقًا أنه لم تقبلهم أي خدمة إعادة تأهيل وظيفي لأن المرض لم يكن متقدمًا بدرجة كافية. عادوا إلى المنزل وبدأت ج. في الشعور بنوبات هلع ونوبات ذعر منتظمة. تحدث الطبيب النفسي في المستشفى معها مرة واحدة فقط ولم يلتق الوالدين.

لم تلتق ج. بالوزيرة بطلة الجودو، ولا يزال منزلها غير ملائم لحالتها ولا أعرف ماذا سيحدث لها عندما يموت والديها...

من الواضح أنها لن يكون لها زوج، ولا أطفال، ولن تعرف الحب، لأنها عالقة في مسكنها غير المناسب. في أحسن الأحوال، سيأخذها الأخ إلى منزله وستعتني بها زوجته وتكرهها بسبب العبء الذي ستمثله.

يا لها من طريقة غريبة للمرور عبر هذه الدنيا، أليس كذلك؟ أن تولد لتعاني دون أن يحرك أحد إصبعه للتخفيف من عذابك في عالم وصل فيه التطور في أرجاء أخرى لدرجة أنه يتيح الآن الرحلات السياحية في الفضاء. يا لها من خسارة!

فلتعلموا أن ج. بعيدة جدًا عن كونها حالة استثنائية، فهي جزء من فئة الحالات الأكثر شيوعا والأكثر انتشارا. إنها جزء من الحياة اليومية لمصلحة تكون فيها الإعاقة هي أول تعبير عرضي. ماذا عن هؤلاء الأطفال الذين لا نستطيع تشخيص مرضهم، بسبب نقص الإمكانيات، والذين يموتون دون أن يتمكن آباؤهم من إطلاق اسم على المرض الذي أودى بهم؟

أحلم بجزائر يكون فيها الحق للحالة ج. بعلاج معدني بكل بساطة.

في الواقع، أنا لا أحلم، أنا يائسة تمامًا، إنها مجرد طريقة للتحدث، تعبير مجازي يسمح بعدم نقل يأسي لكم... حسنًا! أنا «أحلم» بجزائر لا تعتبر فيها الرعاية المُسكِّنة من الكماليات، لأنها المساعدة الوحيدة لأولئك الذين يجبرون على العيش وهم ينتظرون الموت. أحلم

بجزائر لا تعتبر الدعم النفسي نكتة أو موضة الأغنياء، بل ضرورة مطلقة لقبول ما هو غير مقبول.

أحلم بنظام صحي ليس هدفه الوحيد منع الموت، ولكنه يعمل من أجل الرفاه العام للناس؛ نظام لا يتخلى عن المرضى المعاقين في أيدي أسرهم المنكوبة، بل يمنحهم الشجاعة والوسائل للبقاء منتصبين حتى تمنعهم قوانين الجاذبية من ذلك (وظيفة عضلات الانتصاب في الجسم هي اعتماد درجة معينة من التوتر من أجل التمكن من الوقوف بشكل مستقيم «على الرغم من» جاذبية الأرض. الأشخاص الذين لم يعد بإمكانهم تحمل «توتر العضلات» هذا، ينهارون بسبب قوانين الجاذبية. وعلى سطح القمر، سيطفون...)؛ نظام لا تعتبر فيه المتعة كعملية علاجية، ولا تتلخص في زيارة المهرجين المخيفين إلى قسم الأطفال مرة كل ستة أشهر، ولكن أمرا من شأنه أن يوفر البهجة لتجاوز حدود الجسم المتهالك.

باختصار، أحلم بنظام يهتم بكرامة الأفراد... وأحلم بمواطنين لا يستسلمون لسهولة إلقاء اللوم على موظفيّ الصحة ويحمّلونهم كل إخفاقات المستشفى العمومي.

السير الذاتية

أعراب إزار، ولد سنة 1954. تخصص في العلوم الاجتماعية، وكان بدوره إطارا في شركة، وباحثا متعاونا، وناشرا وصحفيا. يعمل منذ عشرين سنة كمستشار مستقل لدى مختلف المنظمات والمؤسسات الوطنية والدولية.

وئام أوراس، ولدت سنة 1993 بالجزائر العاصمة. تابعت دراسة الصيدلة ثم تخصصت في العلاج بالأعشاب وعلم النباتات. مناضلة نسوية، تتناول قضية « قتل النساء » في الجزائر وإحصائها. كما تدير مدونة *الكاهينات*. توجهت للسينما الوثائقية وأخرجت فيلم *بنات الجبلية*، 2019.

صلاح باديس، ولد سنة 1994، مقيم بالجزائر العاصمة. كاتب ومترجم. كتب القصة والشعر وترجم روايات عن الفرنسية. ترجم رواية *عن إخواننا الجرحى* (البرزخ، 2018) لكاتبها جوزيف أندراس وكونغو لكاتبها إريك فويار (البرزخ، 2019).

هاجر باعلي، ولدت سنة 1961، مقيمة بالجزائر العاصمة، حيث درّست الرياضيات بجامعة العلوم والتكنولوجيا هواري بومدين. كاتبة مسرحية، شاعرة وروائية، من بين أعمالها بالفرنسية رواية *Écorces* (البرزخ / Belfond، 2020) ومجموعة قصصية : *Trop tard* (البرزخ، 2014). وهي عضو في اللجنة الدولية لمنظمة الدخول الأدبي لمالي. أطلقت في خريف 2020 بودكاست *Tangente*، حوارات حميمية حول مواضيع متعددة : ثقافة، فن ومجتمع.

عتيقة بلحسن، ولدت سنة 1988. بعد حصولها على ماستر في النقد الفني ومسارها في مجال حقوق الإنسان، كرست نفسها للعمل الجمعوي لأجل النساء.

خديجة بوسعيد، ولدت بالجزائر العاصمة سنة 1984. متحصلة على شهادة دكتوراه في علم الاجتماع الحضري، وهي باحثة بجامعة الجزائر 2.

سمير تومي، ولد سنة 1968، يُقيم ويشتغل بالجزائر العاصمة حيث يدير شركة استشارات. صدرت له روايتان بالفرنسية عن منشورات البرزخ : *الجزائر، الصرخة* (2013)، *المحو* (2016).

أكسيل تيشرفاتين، ولد سنة 1994. طالب في الاحتمالات الإحصائية بجامعة مولود معمري، تيزي وزو. كما أنه مناضل في حقوق الإنسان.

حبيبة جحنين، ولدت سنة 1968. شاعرة ومخرجة أفلام وثائقية، تعمل كمدربة سنيمائية ومبرمجة أفلام في الأحداث الفنية والسينماتوغرافية.

سارة حيدر، ولدت سنة 1987 بالجزائر العاصمة، صدر لها ثلاث روايات : من بينها *زنادقة* (الاختلاف، 2004) والحائزة على جائزة أبوليوس سنة 2005 للمكتبة الوطنية الجزائرية. كما ألفت روايتين بالفرنسية : *فواصل سريعة* (Apic، 2013) وعضة *الخشخاش* (Apic، 2016 / Blast، 2019). تشتغل أيضا في الكتابة الصحفية الثقافية والترجمة.

شوقي عماري، ولد سنة 1964 بالجزائر العاصمة. توجه للصحافة بعد دراسة الجيولوجيا. بدأ برسم الكاريكاتير ثم انتقل للمراسلة وهو حاليا محرر عمود صحفي بجريدة *الوطن*. صدرت له العديد من الروايات بالفرنسية، من بينها *الحمار الميت* (البرزخ، 2014) و*بالاك* (البرزخ، 2018). رسام وموسيقي في أوقات فراغه، كما أن له مشاركات في السينما كممثل وسيناريست.

بشرى فريدي، ولدت سنة 1959. طبيبة نفسية ومعالجة أسرية. مدرِبة في مجال الرعاية النفسية والاجتماعية لضحايا العنف وضمن شبكة الأعمال

العلاجية. هي منخرطة حاليا في جمعية إنسانية، تعمل على ضمان الرعاية النفسية للأشخاص المهاجرين بالجزائر العاصمة.

زكي كساي، ولد سنة 1997، متحصل على بكالُوريوس إدارة الأعمال، يدرس حاليا ماستر 2، تنمية الأعمال التجارية بمدرسة تولوز للإدارة. كما أنه مولع بالموسيقى والسينما.

فريال كساي، ولدت سنة 1988، متحصلة على شهادة الليسانس في علم النفس، وماستر في تسيير مشاريع التنمية. خبيرة في التعاون الدولي منذ 2014، عملت في عدة أوساط لدى مختلف المنظمات غير الحكومية ONG، بجانب الأشخاص المرحلين قسرا أو اختياريا.

محمد العربي مرحوم، ولد سنة 1964. متحصل على شهادة من المدرسة الوطنية العليا للهندسة المعمارية والعمران بالجزائر العاصمة. بدأ مساره المهني كليبرالي سنة 1993. له العديد من الهندسيات المعمارية، من بينها مقر CNEP بسطيف، المكتبة الجوارية مولود فرعون بتيلملي، الجزائر العاصمة، والمركز الثقافي العربي بن مهيدي، الجزائر العاصمة.

لويزة منكور، مولودة سنة 1990، درست الطب في جامعة الجزائر. وهي حاليا طبيبة أعصاب تعمل في القطاع العام.

محتويات الكتاب

مقدمة 7

قصص تخييلية 11

الرقصة الأخيرة
وئام أوراس.................................. 13

بلد ذكي
هاجر باعلي 22

كفرناحوم
عتيقة بلحسن 42

نزهة المئوي
سمير تومي 54

أرض مجهولة
حبيبة جحنين 67

سيناريو استباقي موجهٌ للطغاة
سارة حيدر 75

الحامّة 2034 : المصير الخرافي لبطبوطة
محمد العربي مرحوم 85

شهادات ونصوص.............................. 103

أحلام متواضعة ومجنونة
أعراب إزار 105

علينا إنقاذ المستقبل
صلاح باديس.............................. 121

أغورا
أكسيل تيشرفاتين 130

الـحُلم ببحث علمي مُختلف
خديجة بوسعيد 140

عندما يُعوَّضُ الصحفي بالآلة، من يكتب أصلا على آلة...
شوقي عماري 147

بأي جزائر تحلم بشرى وفريال وزكي ؟
بشرى فريدي، فريال كساي، زكي كساي 157

حكاية ج.
لويزة منقور.............................. 172

السير الذاتية 189

« في البداية، وعندما كان الحراك يضربُ بكل ما فيه من قوة وكانت الأحلام تبدو قريبة ومتاحة، كانت الفكرة الأولية تدور حول الدفع بشباب للحلم بالجزائر في إطار ورشات للكتابة، حيث تعوّد مكتب مؤسسة فريدريش إيبرت في الجزائر على تنظيمها. لكن، في سياق الجائحة التي منعت كل تواصل وتجمّع جسدي، تخلّينا عن الفكرة بسرعة.

وهنا قرّرنا مع منشورات البرزخ دعوة أشخاص، سواء كُنّ مناضلات ومناضلين أم لا، أيضا صحفيات وصحفيين وكاتبات وكتاب ومهندسات ومهندسين وطبيبات وأطباء نفسيين وطالبات وطلّاب ومواطنات ومواطنين لهم علاقة هاوية أم جدّية بالكتابة. دعونا الجميع لتشَارُك الحلم، كل واحد من مكانه، من ذاتيته، من مجال تخصّصه.

يريد هذا الكتاب أن يكون تعبيرا ذاتيا لتصور الجزائر التي نتمنى أن نراها تتحقّق.

إنّها أصوات متفرّدة تقودنا إلى تشكيلة غير محدودة: نصوص خيالية وقصص حياة وشهادات. أربعة عشر نصا، أربعة عشر ذاتا تنعكس من خلالها إمكانية بناء مجتمع للحريات والترقّي والعيش المشترك. »

أمينة إزرّوقن

مؤسسة فريدريش إيبرت، الجزائر

النصوص: أعراب إزار، وئام أوراس، صلاح باديس، هاجر باعلي، عتيقة بلحسن، خديجة بوسعيد، سمير تومي، أكسيل تيشرفاتين، حبيبة جحنين، سارة حيدر، شوقي عماري، بشرى فريدي، زكي كساي، فريال كساي، محمد العربي مرحوم، لويزة منقور.

FRIEDRICH EBERT STIFTUNG

[منشورات البرزخ]

www.editions-barzakh.com

صورة الغلاف: © صونيا مرابط، الصابلات، جانفي 2020.

تم توزيع هذا الكتاب مجّانًا
ولا يمكن، تحت أي ظرف من الظروف، تسويقه.

ISBN : 978-9931-04-080-4

9 789931 040804